منهـــج الإمـــام المحاســـبي

فـــي

الوصـــول لليقـــين

إعداد

الدكتور / عبد الرؤف محمود عبد الرؤف

مدرس العقيدة والفلسفة

بكلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بطنطا

ملخـص البحـث

هذا البحث يدور حول شخصية سطرت معالم المنهج التجريبي بصورة جلية ، ليستحق أن يكون هو الرائد الحقيقى لهذا العلم في صورته الحديثة ، إنه الإمام الحارث بن أسد المحاسبي ؛ الذي استطاع أن يضع القواعد السليمة للتفكير العقلي للوصول لليقين بادئا بالشك المنهجي القائم على النظر المجرد في كل المعارف الموجودة ، ثم تجريد العقل المفكر وإسقاط كل معوقات الوصول للحقيقة عنه حتى يتسنى له صحيح النظر ، ثم يقوم بالاستقراء والتجارب ليقف على المعرفة اليقينية التي لا يخالها شك بعد ذلك .

This research revolves around a character who has clearly outlined the features of the experimental curriculum, to deserve to be the true pioneer of this science in its modern form. It is Imam Al-Harith bin Asad al-Muhasbi, who was able to establish sound rules of mental reasoning to reach certainty beginning with the systematic doubt based on abstract consideration in each Existing knowledge, then abstract the thinking mind and drop all obstacles to reach the truth so that it is valid to consider, and then extrapolates and experiments to stand on the knowledge of certainty, which is beyond doubt after that.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمــة

الحمد لله رب العالمين ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . والصلاة والسلام على أشرف خلق الله أجمعين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعـــــد

فهذا بحث يدور حول شخصية لها بالغ الأثر في الثقافة الإسلامية ، والفكر العالمي ، فهو أستاذ العارفين في زمانه ، الذي تربى على مدرسته الكثير من كبار العلماء سواء بالمشاهدة أو بقراءة الكتب ، والذي خاض غمار البحث في النفس الإنسانية ، وقام بتحليل أمراضها ، وكتب علاجها ، من أوائل الباحثين عن اليقين باستخدام التجارب الممزوجة بالنظر العقلي الشرعي ، حبر زمانه معرفة وسلوكا ، أشد الناس محاسبة لنفسه حتى صارت المحاسبة لقبا له دون غيره من العلماء .

إنه الحارث بن أسد المحاسبي صاحب التآليف الكثيرة والمتنوعة ، والنظريات النفسية التي أثرت في الفكر الإنساني كله .

وهذا البحث – بفضل الله تعالى – يتناول جزءا من فكر هذا العلم ، وهو منهجه في البحث عن اليقين ، وكيفية الوصول إليه ، وهو محاولة للإجابة عن أسئلة كثيرة منها : هل الحارث المحاسبي كان بعيدا عن الحقيقة فشك في وجودها ؟ أم أنه كان يعرف الحقيقة لكنه أراد التثبت منها بمنهج يوصله اليقين الذي لا شك فيه ؟ وما هو السبيل الذي سلكه للوصول لهذه المعرفة اليقينية أو التثبت منها ؟ .

كل هذه الأسئلة وغيرها هي مدار هذا البحث بإذن الله تعالى ، والذي أرجو من الله تعالى فيه التوفيق والقبول .

أهمية البحث

ترجع أهمية هذا البحث في بيان نظرة المسلمين الأوائل لدينهم ، وكتابهم ، وللعقل الذي استخدموه في الوصول للمعارف المختلفة ، مهتدين بهدي القرآن الكريم الذي حضهم على ذلك، وكيف رتبوا أفكارهم العقلية ترتيبا دقيقا للوصول للصواب، مع عدم إهمال الجانب الديني ، سابقين بذلك كل النظريات والمناهج الحديثة في الفلسفة ، واضعين القواعد الصحيحة لعمل العقل دون الانفلات من الدين ، والحارث المحاسبي خير ممثل لهذه المرحلة .

بل يمكن القول : إنه رائد هذه المدرسة الشرعية العقلية الروحية الذي أثر تأثيرا مباشرا وغير مباشر في كل من تكلموا في المنهج التجريبي من بعده .

وقد اهتم الباحثون بدراسة الفكر الصوفي والعقلي المتعلق بالإمام المحاسبي ، وتنوعت الدراسات الخاصة عنه ما بين كتب مستقلة ، وبحوث علمية ، ومن أشهر الذين كتبوا عن الإمام المحاسبي فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور/ عبدالحليم محمود، حيث حقق كتاب الرعاية لحقوق الله ، وألف كتاب أستاذ السائرين ، وقد عني فيه بدراسة حياة الإمام المحاسبي وكتبه .

وقدم الدكتور حسين القوتلي دراسة عن العقل ومترلته عند الإمام المحاسبي في بداية تحقيقه لكتاب مائية العقل للإمام المحاسبي .

وللأستاذ الدكتور / فتحي الزغبي بحث عن خصائص التصوف عند الإمام المحاسبي بعنوان : خصائص التصوف في القرنين الثالث والرابع الهجريين من خلال المحاسبي والجنيد . وغيرهم كثير .

لكن هذه الكتب وغيرها لم تتحدث بصفة مستقلة عن منهج الإمام المحاسبي في الوصول لليقين . فكان هذا البحث لبيان هذه الجزئية في فكر الإمام المحاسبي ، أسأل الله تعالى التوفيق والسداد والمعونة على إتمامه بصورة علمية مناسبة .

منهج البحث

يعتمد هذا البحث – بفضل الله تعالى – على المنهج التحليلي لكتب الحارث متخذا من كتابه الوصايا (النصائح) قاعدة أساسية في بيان منهج المحاسبي الذي اتبعه للوصول لليقين ؛ حيث إنه الكتاب الذي أبان فيه بصورة مجملة عن رحلته من النظر والشك إلى الوصول لليقين ، موضحا الأسباب التي أدت به لكل مرحلة .

وقد عرفت بالإمام المحاسبي في بداية البحث تعريفا باختصار غير مخل ، وذلك راجع لكثرة الكتب التي ترجمت له ، سواء كانت كتبا مختصة به ، أو كتبت ترجمته في بداية تحقيق كتاب له .

وقد تم تقسيم البحث ليتناول المسائل الآتية :

أولا : التعريف بمفردات البحث : (الإمام المحاسبي ، اليقين) .

ثانيا : منهج الإمام المحاسبي في تحقيق اليقين .

أسأل الله تعالى التوفيق والسداد والقبول .

التعريف بمفردات البحث

أولا : التعريف بالحارث المحاسبي

أبو عبدالله الحارث بن أسد المحاسبي ، علم العارفين في زمانه ، وأستاذ السائرين الجامع بين علمي الباطن والظاهر(١) .

ولد بالبصرة من أرض العراق حوالي عام ١٦٥هـ تقريبا (٧٨١م) ، وقضى جل حياته في بغداد حيث توفي بها عام ٢٤٣ هـ (٨٥٧ م) (٢). واختلف في سبب تسميته بالمحاسبي ، فقيل : لكثرة محاسبته لنفسه ؛ أو لأنه كان له حصى يعدها ويحسبها حال الذكر ، وقيل لغير ذلك (٣). صحب الإمام الشافعي ، وقيل بل عاصره فقط (٤)، ونفى ابن الصلاح صحبته للإمام الشافعي(٥) .

تلاميذه :

تتلمذ على علم المحاسبي خلق كثير ، بالتعليم المباشر وغير المباشر ، فهو أستاذ أكثر البغداديين في عصره ، ومن أشهر تلاميذه الإمام الجنيد بن محمد البغدادي (٢٩٧هـ) سيد طائفة الصوفية (٦) .

---

(١) تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى جـ ٢ ص ٢٧٥ . تحقيق : د/ محمود محمد الطناحي ، د/عبد الفتاح محمد الحلو ، هجر للطباعة والنشر والتوزيع .ط ٢ ، ١٤١٣هـ

(٢) الإمام الأكبر د/ عبدالحليم محمود : أستاذ السائرين ص ٢٩ . دار المعارف . القاهرة . بدون تاريخ .

(٣) عبد الرؤف المناوي : الكواكب الدرية جـ ١ ص ٣٨٩ .وانظر : ابن الصلاح : طبقات الفقهاء الشافعية جـ ١ ص ٤٣٩ . تحقيق : محي الدين علي نجيب . دار البشائر الإسلامية بيروت –لبنان . ١٩٩٢ م .

(٤) الكواكب الدرية جـ ١ ص ٣٨٩ .

(٥) طبقات الفقهاء الشافعية جـ ١ ٤٣٩ .

(٦) أبو الحجاج المزي : تهذيب الكمال جـ ٥ ص ٢٠٩ . تحقيق : د/ بشار معروف . مؤسسة الرسالة . بيروت –لبنان . ط١ ١٤٠٠هـ ، ١٩٨٠ م .

وامتد تأثير الإمام المحاسبي في الأجيال التالية له، فمن الواضح أن تلميذه الأكبر ، وإن لم يلتق به كان الإمام الغزالي ، إن الإمام الغزالي يعترف بأنه قرأ كتب الحارث المحاسبي ، قال ذلك في كتابه " المنقذ من الضلال " ، ثم إنه نقل عنه في كتابه " إحياء علوم الدين " كثيرا من الآراء والنصوص ، وفي كتاب الإحياء يقول : (المحاسبي حبر الأمة في علم المعاملة ، وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس ، وآفات الأعمال وأغوار العبادات ، وكلامه جدير بأن يحكى على وجهه) (١).

حيـاتـــه :

كان مولد المحاسبي في مغرب خلافة المهدي العباسي ، وهو من أوائل الخلفاء العباسيين ، وكان قد بلغ من العمر خمس سنوات عندما تولى هارون الرشيد .

وكانت الأمة الإسلامية حينئذ غنية بالمفكرين البارعين ، وخاصة في رحاب العاصمة بغداد ، نذكر منهم على سبيل المثال : الإمام مالك (١٧٩هـــ) ، أبو يوسف (١٨٢هـــ) ، والإمام الشافعي (٢٠٤ هـــ) ، ونذكر منهم : أبو الهذيل العلاف (٢٢٦ هـــ) ، والنظام (٢٣١هـــ) ، والجاحظ (٢٢٥هـــ) في الإلهيات والأدب ، ولا ننسى عدو المعتزلة اللدود الإمام أحمد بن حنبل (٢٤١ هـــ) ، ومجرد ذكر هذه الأسماء يكفي للدلالة على عمق الحياة الفكرية في هذه الفترة) (٢) .

(ولم يهتم المحاسبي بالعلوم المادية أو العلوم البحتة التي ليس من ورائها تهذيب أو إصلاح للنفس ، ولم تدخل هذه العلوم في مجال تفكيره وتأملاته ، وإنما انشغل قلبه بكل

---

(١) أستاذ السائرين ص ٢٣ . وانظر : الإمام الغزالي : إحياء علوم الدين جـــ ٣ ص ٢٦٤ . دار المعرفة . بيروت –لبنان . بدون تاريخ .

(٢) أستاذ السائرين ص ٣٤-٣٥ .

ما كان من الأمور التي تتعلق بالبيئة الدينية) (١) .

وقد نشأ المحاسبي في جو مليء بالاختلافات السياسية والدينية والعلمية ، فكان زمانه مليئا بالجدال في مسائل العقيدة بين أهل الحديث من جهة ، وبين المعتزلة من جهة أخرى ، وكانت الخلافات السياسية بين العرب والفرس ، يريد كل فريق منهم أن يكون له اليد العليا في أمور الدولة ، واحتدمت بسببه المؤامرات ، والدسائس في بلاط الخلفاء ، كذلك كان هناك صراع الشيعة للقضاء على الخلافة القائمة نفسها ، وأما في المجال الديني فالأمور أكثر تعقيدا ، كان المعتزلة يريدون السيطرة ، وكان أهل السنة يريدون السيطرة ، وكان الخوارج يريدون السيطرة ، كما كانت كل العقائد الدينية التي بدت وكأن الإسلام قضى عليها تتزين في أثواب جديدة ، وتصبو هي الأخرى إلى العودة للحياة ، كل ذلك كان يغلي في مرجل المناقشة والخصام والجدل ، وانتهزت مختلف الفرق كل فرصة مواتية ، وجرت الخليفة نفسه إلى التدخل في فتنتها ، وكانت هناك أيضا طرفا في الصراع (الشعوبية) ونظرياتها حول أفضلية الأجناس أو الشعوب ، من الأفضل ومن الأكفأ : العرب أم اللا عرب ؟ (٢).

وهذه الأمور جميعها كانت سببا مباشرا في تحول فكر المحاسبي للبحث عن اليقين ، وتحصيل الحقيقة اليقينية في المعرفة في إطار الكتاب والسنة المطهرة ، دون التأثر بأي ثقافة خارجية عن الإطار الإسلامي في عصره أو قبل عصره ، فلم يؤثر عن المحاسبي أنه تأثر بأي فلسفة أو ديانة منتشرة ، بل كان علمه ونظره نابعين من الكتاب والسنة متأثرا بأحوال الصحابة والتابعين من قبله (٣).

---

(١) نفسه ص ٣٥ .

(٢) أستاذ السائرين ص ٤١-٤٢ بتصرف .

(٣) فند الإمام الأكبر الدكتور / عبدالحليـــم محمـــود الشبهات التي قيلت عن تأثر الإمام المحاسبي خاصة =

وقد تعددت الروايات في بيان ورع المحاسبي ، وزهده ، وأكثر ما يعنينا منها ما رواه الإمام الجنيد (أن الحارث كان كثير الضر ، واجتاز بي يوما وأنا جالس على بابنا ، فرأيت على وجهه زيادة الضر من الجوع ، فقلت له : يا عم لو دخلت إلينا نلت من شيء عندنا ، قال : أو تفعل ؟ قلت : نعم وتسرني بذلك وتبرني ، فدخلت بين يديه ، ودخل معي ، وعمدت إلى بيت عمي ، وكان أوسع من بيتنا لا يخلو من أطعمة فاخرة لا يكون مثلها في بيتنا سريعا ، فجئت بأنواع كثيرة من الطعام ، فوضعته بين يديه ، فمد يده وأخذ لقمة فرفعها إلى فيه فرأيته يلوكها ولا يزدردها ، فوثب وخرج وما كلمني ، فلما كان الغد لقيته فقلت : يا عم سررتني ثم نغصت علي ، قال : يا بني أما الفاقة فكانت شديدة ، وقد اجتهدت في أن أنال من الطعام الذي قدمته إلي ، ولكن بيني وبين الله علامة إذا لم يكن الطعام مرضيا ارتفع إلى أنفي منه زفرة فلم تقبله نفسي ، فقد رميت تلك اللقمة في دهليزكم وخرجت) (١) .

مؤلفاته :

تعددت مؤلفات المحاسبي ، وبلغت من الكثرة ما يربوا على المائتي مؤلف ، فللإمام المحاسبي كتب كثيرة في الزهد وأصول الديانات ، والرد على المخالفين من المعتزلة والرافضة وغيرهما ، وكتبه كثيرة الفوائد جمة المنافع (٢)، ومنها : آداب النفوس ، شرح المعرفة ، المسائل في أعمال القلوب والجوارح ، والمسائل في الزهد ، رسالة البعث

= والتصوف الإسلامي عامة بأي أثر خارجي ، موضحا أن هذه الشبهات ليست صحيحة في الواقع ، وأن الصوفية لم يتأثروا إلا بالكتاب والسنة . انظر : أستاذ السائرين ص ٥٤-٦٣ .

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد جـ ٨ ص ٢١٣ -٢١٤ . دار الكتب العلمية . بيروت – لبنان . وانظر : أبو نعيم الأصبهاني : حلية الأولياء جـ ١٠ ص ٧٤- ٧٥ . دار الكتاب العربي . بيروت – لبنان . ط ٤ ١٤٠٥هـ .

(٢) تاريخ بغداد جـ ٨ ص ٢١١.

والنشور ، مائية العقل ومعناه واختلاف الناس فيه ، الرعاية لحقوق الله ، الخلوة والتنقل في العبادة ، معاتبة النفس ، التوهم ، رسالة المسترشدين (١) ، فهم القرآن ، الوصايا ، المكاسب والورع والشبهات ، بدء من أناب إلى الله تعالى ، فصل من كتاب العظمة ، فهم الصلاة ، المراقبة ، إحكام التوبة ، كتاب المسترشد ، كتاب العلم، الصبر والرضا، المعرفة، رسالة في التصوف . وقد ترجم الإمام الأكبر الدكتور / عبدالحليم محمود لكل كتاب من هذه الكتب مع ذكر موضوع كل كتاب في كتابه أستاذ السائرين (٢).

وثمت كتبا أخرى مفقودة للإمام المحاسبي مثل : كتاب التنبيه ، وكتاب أخلاق الحكيم ، وكتاب الدماء (٣) ، وكتاب التفكر والاعتبار . (٤)

وللإمام المحاسبي طريقة في التأليف لم تكن شائعة أو منتشرة في زمنه ، عمل فيها على الكتابة أو التأليف في القضايا التي تخص زمنه على وجه الخصوص ، وبما يدور في النفوس على العموم ، يقول الإمام الجنيد : (كان الحارث المحاسبي يجيء إلى منزلنا ، ويقول : أخرج معنا نصحر ، فأقول له : تخرجني من عزلتي وأمني على نفسي إلى الطرقات والآفات ورؤية الشهوات ، فيقول أخرج معي ولا خوف عليك ، فأخرج معه فكأن الطريق فارغ من كل شيء لا نرى شيئا نكرهه ، فإذا حصلت في المكان الذي يجلس فيه قال لي : سلني ، فأقول له ما عندي سؤال أسألك ، فيقول لي : سلني عما يقع في نفسك فتنثال علي السؤالات ، فأسأله عنها فيجيبني عنها للوقت ، ثم يمضي إلى منزله

---

(١) الزركلي : الأعلام جـ ٢ ص ١٥٣ . دار العلم للملايين . بيروت – لبنان . ط٥ ، ١٩٨٠ م .

(٢) انظر : أستاذ السائرين ص ٧١–٨٣ .

(٣) ذكر الخطيب البغدادي وابن الصلاح وغيرهما نسبة هذا الكتاب للإمام المحاسبي عند ترجمتهم له . انظر : تاريخ بغداد جـ ٨ ص ٢١١ . طبقات فقهاء الشافعية جـ ١ ص ٤٤٤ .

(٤) أستاذ السائرين ص ٨٤ .

فيعملها كتبا) [١] .

وهذه الطريقة تحرك العقل والوجدان نحو ما يثار من أسئلة تتعلق بالمسائل العقلية والقلبية ، وهي أيضا تجعل الباحثين عن الحقيقة يخرجون عن دائرة الذات المفكرة إلى أفكار أخرى تحملها عقول متنوعة ، يطلعون على تجاربهم ، وأفكارهم ، وبالتالي يتوصلون إلى حقائق جديدة ربما لم يفكروا فيها يوما ، وتظهر لهم مسائل جديدة للبحث لم تطرقها عقولهم يوما .

الترتيب التاريخي لمؤلفات المحاسبي :

قام بمحاولة ترتيب كتب الإمام المحاسبي تاريخيا جل العلماء الذين تناولوه بالدراسة والتحقيق لكتبه ، وفصل القول في هذا الترتيب كلا من فضيلة الإمام الأكبر الدكتور / عبدالحليم محمود ، والدكتور / حسين القوتلي الذي حقق كتابي العقل ، وفهم القرآن للمحاسبي .

أما فضيلة الإمام الأكبر : فيرى صعوبة ترتيب كتب المحاسبي ترتيبا تاريخيا ؛ لوجود عقبات كثيرة منها : إن القدماء لم يذكروا شيئا في شأن هذا الترتيب ، كذلك لا توجد إشارات تعين الباحث في كتب الإمام المحاسبي يستدل منها على الفترة التي كتبت فيها [٢].

فحاول فضيلة الإمام ترتيبها معتمدا على الحالة الروحية للمحاسبي وتصوفه، وعلى فكرة أولية أساسية مفادها أن الحارث المحاسبي لم يولد صوفيا ، لقد تصوف على مراحل : نزعة صوفية تقوى شيئا فشيئا ، ثم الوصول إلى قمم التصوف بعد سنين طويلة [٣].

---

(١) تاريخ بغداد جـ ٨ ص ٢١٣ . تهذيب الكمال جـ ٥ص ٢١٠ .

(٢) أستاذ السائرين ص ٨٤ .

(٣) نفسه ص ٨٥ .

ويرى الإمام الأكبر أن المحاسبي سار في بداية حياته كمؤلف على الأساليب الشائعة لدى كتاب عصره ، ولم يخرج عنها في شيء كثير ، ويمثل كتاب فهم القرآن نموذجا لهذه المرحلة ، ثم يتقدم المحاسبي في مسالك التصوف ليصل لمرحلة النضج ، وإلى درجة عالية من التصوف أسمى مما اتصف به في بدء حياته الفكرية ، والنموذج الجلي لهذه المرحلة كتابه " الرعاية لحقوق الله " . وفي السنين الأخيرة من حياته يصل تصوف المحاسبي إلى أعلى قممه ، والنموذج الذي يمثل كتبه حينئذ هو كتاب " الوصايا " (١).

فالإمام يربط ترتيب الكتب بمراحل تصوف الإمام المحاسبي ، وترقيه في مراحل السلوك المختلفة ، ليكون عنده ثلاث مراحل : مرحلة البداية ، ثم مرحلة التحليل النفسي ، وأخيرا : مرحلة التأمل الديني الصوفي (٢) .

وعلى نفس النهج سار الدكتور القوتلي ، فإنه يرتب الكتب بناء على مراحل تطور المحاسبي في التصوف .

لكنه يخالف الإمام الأكبر في التقسيم الزمني، وبالتالي الترتيب التاريخي للكتب ، فالدكتور القوتلي يضع الترتيب في زمنين فقط ، هما فترة التحول ، وفترة التدريس ، ويرى أن الفترة الأولى سابقة على الثانية ، وأن النموذج الأمثل لها هو كتاب " الوصايا " ولمثل قوله ذهب الشيخ / عبدالقادر أحمد عطا (٣) .

وكتب فترة التحول عند الدكتور القوتلي متنوعة، وقد رتبها على النحو التالي : " الوصايا ، الخلوة والتنقل في العبادة، آداب النفوس، رسالة المسترشدين ، التوهم" .

---

(١) نفسه ص ٨٥- ٨٦ .

(٢) نفسه ص ٨٧ .

(٣) انظر : عبدالقادر عطا : مقدمة كتاب آداب النفوس للمحاسبي ص ٢٦ .مؤسسة الكتب الثقافية . بيروت – لبنان . ط ٢ ، ١٤١١هـ ، ١٩٩١ م .

المرحلة الثانية : فترة التدريس : يغلب في أولها النزعة الكلامية المختلطة بالتصوف حتى تختفي في كتبه المتأخرة شيئا فشيئا ، وتتضح في مؤلفات الخصائص الأسلوبية للحارث المحاسبي ، وتبدوا كتبه أكثر منطقية في ترتيب فصولها ، بسبب الثقة في النفس ، والاعتداد الكبير بالعقل المؤمن ، وترتيب مؤلفات هذه الفترة على النحو التالي : مائية العقل ، العظمة ، إحكام التوبة ، في الدماء ، المكاسب ، المسائل في الزهد ، المسائل في أعمال القلوب والجوارح ، الرعاية لحقوق الله تعالى الذي يمثل قمة صوفية فكرية وأسلوبية . (١)

ولا أستطيع أن أقطع بصحة أحد الرأيين على حساب الآخر ، لأجل تلك الصعوبات التي أوردها الإمام الأكبر ، فليس بين أيدي الباحثين تأريخ واضح يعينهم على ترتيب هذه الكتب ترتيبا زمنيا.

لكن الذي يعني هذا البحث هو الترتيب الفكري والمنهجي لهذه الكتب ، ويعتبر كتاب الوصايا (النصائح) في مقدمته هو النواة الأساسية التي سأنطلق منها بتوفيق الله تعالى لبيان منهج الإمام المحاسبي في الوصول لليقين ، حيث إنه قد اختصر منهجه في هذه المقدمة ، موضحا نقطة الانطلاق ، وأداة النظر ، وعوائق البحث عن اليقين ، ونتيجته التي توصل إليها ، ثم يأتي بعد ذلك كل كتاب من كتبه مفصلا وموضحا لنقطة ما من هذه المسائل . فمثلا عند الحديث عن العقل لابد من الرجوع والاعتماد بالأساس على كتاب مائية العقل ، وهكذا في بقية المسائل .

---

(١) نفسه ص ٨٥ .

ثانيا : التعريف باليقين

اليقين يطلق على العلم وإزاحة الشك ، وتحقيق الأمر ، وقد أيقن يوقن إيقانا ، فهو موقن ويقن ييقن يقنا فهو يقين ، واليقين نقيض الشك ، والعلم نقيض الجهل ، تقول : علمته يقينا ، وفي التنزيل العزيز ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الحاقة : ٥١] ، أضاف الحق لليقين ، وليس هو من إضافة الشيء إلى نفسه ؛ لأن الحق هو غير اليقين ، إنما هو خالصه وأصحه ، فجرى مجرى إضافة البعض إلى الكل (١).

وفي الاصطلاح : اعتقاد الشيء بأنه كذا مع اعتقاد أنه لا يمكن إلا كذا مطابقا للواقع غير ممكن الزوال .

والقيد الأول : جنس يشتمل على الظن أيضا ، والثاني : يخرج الظن ، والثالث: يخرج الجهل ، والرابع : يخرج اعتقاد المقلد المصيب .

وعند أهل الحقيقة : رؤية العيان بقوة الإيمان لا بالحجة والبرهان، وقيل بمشاهدة الغيوب بصفاء القلوب وملاحظة الأسرار بمحافظة الأفكار .

وقيل هو طمأنينة القلب على حقيقة الشيء ، يقال : يقن الماء في الحوض إذا استقر فيه .

وقيل : اليقين رؤية العيان ، وقيل : تحقيق التصديق بالغيب بإزالة كل شك وريب . وقيل : اليقين نقيض الشك . وقيل : اليقين رؤية العيان بنور الإيمان.

وقيل : اليقين ارتفاع الريب في مشهد الغيب . وقيل : اليقين العلم الحاصل بعد الشك (٢).

---

(١) ابن منظور : لسان العرب جـ ١٣ ص ٤٥٧ . دار صادر – بيروت .لبنان .

(٢) انظر : الجرجاني : التعريفات ص ٣٣٢ . تحقيق : إبراهيم الإبياري . دار الكتاب العربي . بيروت – =

وللیقین في الفلسفة ثلاثة أقسام :

الأول : اليقين الواقعي أو الطبيعي : وهو الاعتقاد الجازم المتعلق بموضوعات التجربة . كقولنا : السماء ممطرة .

الثاني : اليقين العلمي : وهو الاعتقاد الجازم المتعلق بإدراك الحقائق البديهية ، والحقائق النظرية ، فإذا كانت الحقائق بديهية كالأوليات مثلا كان اليقين بها يقينا حدسيا مباشرا ، وإذا كانت نظرية كالحقائق التي يكشف عنها البرهان كان اليقين بها يقينا استدلاليا غير مباشر .

الثالث : اليقين الأخلاقي : اقتناع المرء بأنه يستطيع أن يتخذ إزاء ما يعتقد حقيته قرارا عمليا موافقا ، وإن كان هذا الاقتناع لا يتنافى مع إمكان الخطأ (١).

واليقين عند الصوفية على ثلاث مقامات : يقين معاينة : وهذا لا يختلف خبره ، فالعالم به خبير ، وهو للصديقين والشهداء .

ويقين تصديق واستسلام : وهذا في الخبر ، والعالم به مخبر مسلم ، وهذا يقين المؤمنين ، وهم الأبرار منهم الصالحون ، ومنهم دون ذلك كقوله تعالى جده : ﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأحزاب : ٢٢] ، وقد يضعف هؤلاء بعدم الأسباب ، ونقصان المعتاد ويقوون بوجودها وجريان العادة ، ويحجبون بنظرهم إلى الأواسط ، ويكاشفون بها ويجعلون مزيدهم وأنسهم بالخلق ، ويكون نقصهم ووحشتهم بفقدهم، ويكون من هؤلاء الاختلاف ويتلوّنون بالخلاف لتلوين الأشياء وتغيرها نقصها.

= لبنان ١٤٠٥هـ . وانظر : المناوي : التوقيف على مهام التعاريف ص ٧٥٠ . تحقيق : محمد رضوان الداية . دار الفكر المعاصر ، دار الفكر – بيروت. دمشق ١٤١٠ هـ .

(١) جميل صليبا : المعجم الفلسفي جـ ٢ ص ٥٨٨ . دار الكتب اللبناني . بيروت –لبنان . مكتبة المدرسة . بيروت –لبنان . ١٩٨٢ م .

المقام الثالث من اليقين : وهو يقين ظن يقوى بدلائل العلم والخبر ، وأقوال العلماء ، ويجد هؤلاء المزيد من اللّه تعالى والنصيب منه لهم ، ويضعف بفقد الأدلة ، وصمت القائلين ، وهذا يقين الاستدلال وعلوم هذا في المعقول وهو يقين المتكلمين من عموم المسلمين من أهل الرأي وعلوم العقل والقياس والنظر ، وكل موقن باللّه تعالى فهو على علم من التوحيد والمعرفة ، ولكن علمه ومعرفته على قدر يقينه ، ويقينه من نحو صفاء إيمانه ، وقوّته وإيمانه على مقتضى معاملته ورعايته (١).

تعريف اليقين عند الإمام المحاسبي

يرى الإمام المحاسبي أن اليقين ضد الشك ، وأنه مرحلة أخيرة في المعرفة ، بعد أن يتحقق بها العبد لا بد أن يعمل عليها وألا يتركها ، وقد تنوعت عبارات الإمام المحاسبي في بيان ذلك ، حيث ذكر في أكثر من موضع من كتبه اليقين كمرحلة أخيرة في المعرفة ، جامعا بينه وبين الشك في عبارة واحدة كمتناقضين لا يجوز اجتماعهما معا ، فيقول : (إن أصل الشكر أن يعرف العبد أن ما به من نعمة فمن الله بقلبه ، علم يقين ، لا تخالطه الشكوك) (٢) . وينصح محاوره بالعمل على اليقين وترك الشك قائلا : (فاعمل على اليقين ، واترك الشكوك ، وكن وصي نفسك) (٣) . فالشك واليقين لا يجتمعان عند المحاسبي ، فالشك عذاب لا يذهب إلا باليقين ، ولا يتحقق اليقين إلا بالمعرفة الصحيحة ،

---

(١) أبو طالب المكي : قوت القلوب جـ ١ ص ٣٨١-٣٨٢ . تحقيق : د / محمود الرضواني . دار التراث – القاهرة . ط ٢ . ١٤٣١هـ ، ٢٠١٠ م .

(٢) الحارث المحاسبي : آداب النفوس ص ٥١ . تحقيق : عبدالقادر أحمد عطا . مؤسسة الكتب الثقافية . بيروت –لبنان . ط ٢ ١٤١١هـ ، ١٩٩١م .

(٣) الحارث المحاسبي : القصد والرجوع إلى الله تعالى ص ٢٨٢ . ضمن كتاب الوصايا . تحقيق : عبدالقادر أحمد عطا . دار الكتب العلمية – بيروت . لبنان . الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ ، ١٩٨٦م .

والعمل بأمر الله تعالى ، يقول المحاسبي : (واعلم أن فريضة كتاب الله: العمل بحكمه من الأمر والنهي ، والخوف والرجاء لوعده ووعيده ، والإيمان بمتشابهه، والاعتبار بقصصه وأمثاله، فإذا أتيت بذلك فقد خرجت من ظلمات الجهل إلى نور العلم ، ومن عذاب الشك إلى روح اليقين) (١) . وقد استخدم الإمام المحاسبي هذا المركب في كلامه كثيرا ، فقد جمع بين كلمتي رَوْح ، وكلمة اليقين في أكثر من موطن (٢) ، واستبدلها بكلمات أخرى مثل (برد اليقين) (٣) ، (حلاوة اليقين) (٤) .

ويتحقق صدق اليقين عند العمل (بالإيمان وبالعقل ، وبالمعرفة وحسن التدبير في ظاهر أمر العبد وباطنه) (٥) .

وبذلك يعرف الإمام المحاسبي اليقين في مرحلته الأخيرة بأنه : (نور يجعله الله تعالى في قلب عبده ، فيشاهد به أمور الآخرة كالمشاهد لها بالغيب عنها ، فيرى ما هنالك من الجنة والنار ، وعظيم ملكوت السماوات برؤية نور القلب بما هو أنفذ من رؤية الأعين لمشاهدة الدنيا) (٦) .

---

(١) المحاسبي : رسالة المسترشدين ص ٣٨ . تحقيق : عبدالفتاح أبو غدة . دار السلام . حلب – سوريا . ط ٥ ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م .

(٢) انظر : رسالة المسترشدين ص ٣٨ ، ١٧٢ . آداب النفوس ص ١٤١ .

(٣) انظر : الحارث المحاسبي : مائية العقل ص ٢٣٥ . تحقيق : حسين القوتلي . دار الفكر . بيروت – لبنان . ط ١ ١٣٩١هـ ، ١٩٧١ م .

(٤) آداب النفوس ص ٨٢.

(٥) آداب النفوس ص ٧٦ .

(٦) الإمام المحاسبي : الخلوة والتنقل في درجات العابدين ص ٤٧٧ . تحقيق : إغناطيوس عبده فكري . مجلة المشرق .عدد رقم ٤ أكتوبر ١٩٥٥ م . المطبعة الكاثوليكية .

فالإمام المحاسبي يرى أن اليقين ضد الشك ، وأن الوصول لليقين يتم بالعقل كآلة للاستدلال الظاهر على المعارف ، وبالإيمان الناتج عن معرفة وتعقل وتوفيق من الله تعالى . وهذا ما سوف يفصله البحث بتوفيق الله تعالى في الصفحات القادمة .

منهـج الإمام المحاسـبي في تحقيـق اليقـين

تمهيـــد

يؤمن الإمام المحاسبي بوجود معرفة يقينية ، أراد البحث عنها ، أو التيقن والتثبت منها ، وقد أعلن عن المراحل التي سلكها في سبيل الوصول لليقين مجملة تارة ومفصلة أخرى .

وأحاول من خلال قراءة ما كتبه الإمام المحاسبي ، حسب المنهج المعلن عنه في مقدمة البحث ، استنباط المراحل التي استخدمها في وصوله لليقين ، مستعينا بالله تعالى طالبا منه التوفيق والسداد.

وهذه المراحل تتلخص فيما يلي :

المرحلة الأولى : الشك القائم على النظر المجرد (١) .

يرى المحاسبي أن الشك مرحلة لابد منها في البحث عن الحقيقة ، وأن هاجس الشك يصيب الباحثين في اليقين ، وأن الشك أسبق للقلوب من اليقين وأوجد ؛ لأن اليقين أعز مطلبا وأقل وجودا (٢).

وأن العاقل هو من يعمل على التخلص من الشك بأدوات عقلية مناسبة ، ثم يأتيه

---

(١) احترت كثيرا عند اختيار هذا العنوان كخطوة أولى في منهج المحاسبي للوصول لليقين ، خاصة أن لفظ الشك لم يستخدمه المحاسبي صراحة في بدايات حديثه عن منهجه في كتابه الوصايا ، وإنما استخدم لفظ النظر ، لكنه في ثنايا كلامه أخبر أنه أصابه شيء من عدم تبين الحقيقة كاملة نظرا لاختلاف الأمة وعدم تحديد الحقيقة فيهم ، وهذا هو عين الشك لكنه دائما عند المحاسبي كان مقرونا بالتجرد العقلي ، وعدم الوقوع في الشك لأجل الشك بل لأجل الوصول للحقيقة ، فالمنهج عنده مرتبط بالخروج من الشك الى اليقين ، أو على حد تعبيره (من عذاب الشك إلى رَوْح اليقين) وهذا ما سأبينه بفضل الله تعالى في ثنايا هذا البحث . لأجل ذلك اخترت هذا العنوان : (الشك القائم على النظر المجرد)

(٢) انظر : الحارث المحاسبي : الخلوة والتنقل في درجات العابدين ص ٤٥٤ . تحقيق: إغناطيوس عبده خليفة . مجلة المشرق . عدد رقم ٤ أكتوبر ١٩٥٥ م .

لطف الله تعالى ليخلصه من هذا الشك جملة وتفصيلا [١] ، وغيره يظل في الباطل إذا لم يشك فيما هو عليه ويتهم نفسه [٢] ، فالشك سبيل للنظر في المعارف ، والتثبت من الأحكام .

وقد أبان المحاسبي عن طريقته التي انتهجها في هذا الأمر ، وهي أن تحديد الغاية سابق على مجرد النظر ، وأن نظره سيكون لغرض الكشف عن الحقائق ، وليس مجرد نظر عابر غير محدد المعالم .

فأعلن عن غايته وعن الهدف الذي يريده من النظر ، وهو التماس الحق ، وطلب العلم والعمل ، وأنه قد نظر في المعارف المختلفة المتاحة أمامه في المجتمع الإسلامي نظرا دقيقا، فيقول: (فلم أزل برهة من عمري أنظر اختلاف الأمة، وألتمس المنهاج الواضح والسبيل القاصد ، وأطلب من العلم والعمل ، وأستدل على طريق الآخرة بإرشاد العلماء ، وعقلت كثيرا من كلام الله عز وجل بتأويل الفقهاء) [٣] .

فالإمام يعلن أن في الأمة اختلاف ، وأن ثمت طريق واضح عليه أن يلتمسه ، وهذا النظر ليس مجرد شكوك فيما عليه الناس، يستتبع نفي الحقائق، وإقامة الشبهات ، بل هو نظر دقيق يستتبع يقينا معرفيا إذا توافرت فيه الشروط الصحيحة . [٤]

---

(١) انظر : الحارث المحاسبي : فهم القرآن ص ٢٦٧ . تحقيق : حسين القوتلي . دار الفكر . بيروت – لبنان . ط ١ ١٣٩١هـ ، ١٩٧١ م .

(٢) انظر : الحارث المحاسبي : الرعاية لحقوق الله ص ٣٤٨. تحقيق: عبدالقادر احمد عطا . دار الكتب العلمية. بيروت – لبنان . بدون تاريخ .

(٣) الحارث المحاسبي : النصائح ص ٦٠ . ضمن مجموع كتاب الوصايا . تحقيق: عبدالقادر أحمد عطا . دار الكتب العلمية – بيروت . لبنان . الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ ، ١٩٨٦م .

(٤) هناك فرق بين الشك والنظر، وبين الشك المقترن بالنظر، (فالشك هـــو التردد بين نقيضين لا يرجح =

فإن الإمام المحاسبي يدرك وجود الحق بين الأفكار المطروحة ، لكنه قد يكون خفيا لسبب ما ، في الفكرة أو في متبعيها ، وهذا يقتضي النظر فيهما جميعا .

ويطلعنا الإمام المحاسبي أن الشك قد بدأ يتطرق إليه لما انتهى إليه البيان بافتراق الأمة، وأن من هذه الفرق المختلفة فرقة واحدة ناجية ، فيقول : (فقد انتهى البيان إلى أن هذه الأمة تفترق على بضع وسبعون فرقة، منها فرقة ناجية والله أعلم بسائرها) [(١)] .

ثم يعلن عن السبب الرئيسي لوجود مثل هذا الشك في عقله ونفسه ، وهو أنه رأى (كل صنف منهم يزعم أن النجاة لمن تبعهم ، وأن المهالك لمن خالفهم) [(٢)] .

فالمحاسبي في هذا النص قد بدأ النظر في أمر الأمة بعد ما وصله أمر اختلافهم ، وأن نبينا (صلى الله عليه وسلم) لم يعين لنا الفرقة الناجية بالاسم بل عينها بالمنهج والسمات ، ولذلك لما بدأ الإمام المحاسبي في النظر وجد أن الكل يزعم أنه الناجي وحده ، وأنه الممثل الوحيد للفرقة الناجية التي أخبر عنها المصطفى (صلى الله عليه وسلم) .

= العقل أحدهما على الآخر ، وذلك لوجود آمارات متساوية في الحكمين ، أو لعدم وجود أية أمارة فيهما ، ويرجع تردد العقل بين الحكمين إلى عجزه عن معاناة التحليل ، أو إلى قناعته بالجهل) . انظر : جميل صليبا : المعجم الفلسفي جـــ ١ ص ٧٥ .

أما النظر فهو : (ترتيب مقدمات علمية أو ظنية ليتوصل بها إلى تحصيل علم أو ظن ، والنظر يفيد العلم اليقيني) . انظر : الفخر الرازي : معالم أصول الدين ص ٢٢-٢٤ . تحقيق : طه عبد الرؤف سعد . دار الكتاب العربي . بيروت – لبنان . بدون تاريخ .

وأما الشك المقترن أو القائم على النظر فهو يجمع بين الشك كمرحلة أولى ضرورية تصيب الباحث بإرادته أو على غير إرادته ، قد لا تستغرق وقتا طويلا يعقبها مباشرة النظر ، وفي هذه الحالة يحدد الشاك غايته التي يريد الوصول إليها أولا ، ثم يبدأ بالنظر في جميع المعارف دون تمييز ليقف على اليقين ، مثلما فعل الإمام المحاسبي .

(١) الوصايا – النصائح – ص ٥٩ .

(٢) الوصايا – النصائح – ص ٦٠ .

وكان هذا سببا قويا لأن يبدأ الإمام المحاسبي بالنظر في هذه الأفكار المطروحة نظرة الباحث المدقق ، فيقول : (وتدبرت أحوال الأمة ونظرت في مذاهبها وأقاويلها ، فعلقت من ذلك ما قدر لي ، ورأيت اختلافهم بحرا عميقا غرق فيه ناس كثير ، وسلم منه عصابة قليلة [١] ، ورأيت كل صنف منهم يزعم أن النجاة لمن تبعهم وأن المهالك لمن خالفهم) [٢].

وبعد هذه النظرة الكلية للأفكار والأقوال ابتدأ الإمام بالنظر في الأشخاص مستخدما أسلوب التحليل الدقيق للأصناف الموجودة في المجتمع الإسلامي ، فوجدهم تسعة أصناف : (منهم العالم بأمر الآخرة ، لقاؤه عسير ، ووجوده عزيز ، ومنهم الجاهل فالبعد عنه غنيمة ، ومنهم المتشبه بالعلماء مشغوف بدنياه مؤثر لها ، ومنهم حامل علم منسوب إلى الدين ملتمس بعلمه التعظيم والعلو ، ينال بالدين من عرض الدنيا ، ومنهم حامل علم لا يعلم تأويل ما حمل ، ومنهم متشبه بالنساك متحر للخير لا غناء عنده ، ولا نفاذ لعلمه ، ولا متعمد على رأيه ، ومنهم منسوب إلى العقل والدهاء ، مفقود الورع والتقى ، ومنهم متوادون على الهواء واقفون ، وللدنيا يذلون ورئاستها يطلبون ، ومنهم شياطين الإنس عن الآخرة يصدون، وعلى الدنيا يتكالبون ، وإلى جمعها يهرعون ، وفي الاستكثار منها يرغبون ، فهم في الدنيا أحياء ، وفي العرف موتى) [٣].

وبما أن الإمام المحاسبي طامح في الوصول لليقين المعرفي ، فإنه وبكل تجرد بدأ

---

(١) هذا النص يؤكد الفكرة التي تحدثت عنها سابقا عند الإمام المحاسبي وهي أنه قد حدد وجهته قبل النظر ، وأنه كان يعرف الحق ، لكنه أراد أن يؤكده لنفسه ، ولمن يقرأ كلامه من بعده أو يسمعه ، وأراد نقل تجربته كاملة ، وإن كانت ليست بتفصيل كبير .

(٢) الوصايا – النصائح – ص ٦٠ .

(٣) الوصايا – النصائح – ص ٦٠ – ٦١ .

يفتش عن موضعه في هذه الأصناف ؛ حتى يتسنى له الحكم على نفسه أولا قبل أن يحكم على غيره ، أو ينصحه ، ولكي يرشد نفسه للمنهج الواجب اتباعه ، وقواعد هذا المنهج ، والسبب الذي أدى إلى وقوع أصناف من الناس في الضلال ، فيقول : (فتفقدت في الأصناف نفسي وضقت بذلك ذرعا ، فقصدت إلى هدى المهتدين بطلب السداد والهدى ، واسترشدت العلم ، وأعملت الفكر ، وأطلت النظر ، وتبين لي من كتاب الله وسنة نبيه وإجماع الأمة ، أن اتباع الهوى يعمي عن الرشد ، ويضل عن الحق ، ويطيل المكث في العمى) [١].

والإمام المحاسبي بنظرته هذه قد وضع يده على الداء المتوطن في نفوس الفرق الضالة ، وهو اتباع الهوى ، وأن ذلك الاكتشاف لم يكن من نفسه ، بل كان من صحيح نظره في كتاب الله تعالى وسنة نبيه (صلى الله عليه وسلم) ، وإجماع الأمة .

وهذا يدل على أن الشك الذي ساور الحارث المحاسبي لم يكن شكا مطلقا ، بل كان شكا مقترنا بالنظر المجرد هدفه الوقوف على الحقائق ، والتثبت من صدقها ابتغاء حصول اليقين ، فالإمام المحاسبي :

أولا : حدد الهدف من البحث والنظر، وهو طلب الوصول للحق ، واليقين فيه.

ثانيا : اعترف بوجود الاختلاف .

ثالثا : وقف أوليا على الأسباب التي أدت الى الاختلاف .

رابعا : نظر في الأفكار المختلف حولها جميعا دون استبعاد لأحدها على حساب الآخر .

خامسا : نظر في المتبعين لهذه الأفكار ، وقام بتقسيمهم حتى يتسنى له صحيح النظر في كل صنف .

سادسا : قاس نفسه على الأفكار المطروحة ، وتفقد نفسه في الأصناف التي قسمها .

---

(١) الوصايا – النصائح ص ٦١ .

سابعا : استصحب أثناء نظره المجمع على صحته عند الجميع ، وهو كتاب الله تعالى ، وصحيح سنة نبيه (صلى الله عليه وسلم) ، وإجماع الأمة [(١)] .

ثامنا : اعترف بوجود معوقات أساسية تمثل حائلا بين الحق وطلبه ، وأهمها خطرا وأعظمها اتباع الهوى .

والإمام المحاسبي حتى اللحظة لم ينظر في الأفكار نظرة الناقد ، بل نظر إليها نظرة معرفية وصفية جامعة مخافة أن يكون نظره غير صحيح ، أو أن يكون ذلك من كيد عدوه – الشيطان والنفس –، فيقول : (وإنما اشتغلت بالوصف اضطرارا ، حيث رأيت نفسي خارجا منها جميعا [(٢)] ، فاعتنيت بمعرفة وصفها والهداية إليها ، رجاء ان يوصلني إلى نفس المنفعة والهداية إليها ، والله المستعان على ما نقول ونضمر) [(٣)] .

وحين أراد النظر الصحيح فإنه يعلن أنه قد أسقط الهوى عن نفسه ، وتلك هي المرحلة الثانية من مراحل صحيح النظر حتى يصبح نظرا مجردا وليس مجرد شك ووصف .

إسقاط الهوى

الهــوى : هو محبة الإنسان الشيء وغلبته على قلبه [(٤)] . وعند المحاسبي يعني : (تعلق النفس بالشهوات ، وميلها إلى الراحات ، فعلى قدر الشهوات يتمكن منها الضعف ، فيستولي عليها الهوى) [(٥)] .

---

(١) المقصود بإجماع الأمة هنا ما أجمعوا عليه دون اختلاف فيما بينهم ، والمقصود هنا ما اتفقت عليه الفرق جميعا ، وهو عدم اتباع الهوى .

(٢) أي المعارف المتاحة في عصره .

(٣) انظر : المحاسبي : آداب النفوس ص ٦٨ .

(٤) لسان العرب جـ ١٥ ص ٣٧١ .

(٥) الوصايا – القصد والرجوع إلى الله تعالى – ص ٢٣٠ .

والسبب في الدعـــوة إلى إســـقاط الهوى والشـــهوة (أهما ضد النظر والعلم والبيان) (١) .

ولأجل ذلك فإن المحاسبي يؤكد على ضرورة إسقاط الهوى وعدم اتباعه حين طلب اليقين ، وقد طبق ذلك على نفسه بعد خروجه من مرحلة الشك والنظر الوصفي ، فيقول : (فبدأت بإسقاط الهوى عن قلبي (٢) ، ووقفت عند اختلاف الأمة مرتادا لطلب الفرقة الناجية ، حذارا من الأهواء المردية ، والفرقة الهالكة ، متحرزا من الاقتحام قبل البيان (٣) ، وألتمس سبيل النجاة لمهجة نفسي) (٤) .

ويمكن أن نستخلص من النصوص السابقة مع نصوص أخرى الآليات التي استخدمها المحاسبي في منهجه للوصول إلى اليقين في مرحلته الأولى :

١- الشك هو أول درجات التنبه لطلب اليقين ، وتهمة النفس أول أداة تعين على طلب الحق ، فالذي يتهم نفسه ويشك فيما هو عليه في أول مراحل الطلب ، ثم يسقط الهوى عن نفسه يتضح له وجه الخطأ فيتركه لطلب الحق ، وهذه القاعدة قد طبقها الإمام المحاسبي على نفسه حين النظر – كما سبق بيانه – وهو يرى أن عدم

---

(١) نفسه .

(٢) وقد خصص المحاسبي القلب بذلك ؛ لأن الهوى والشهوة والنية هي من الواردات على القلب ، ولا ينجوا العبد منهم إلا إذا جرد قلبه منهم وأخلص الإرادة وصحح النية . انظر: آداب النفوس ص ١٠٣ .

(٣) ذكر ديكارت في كتابه مقال عن المنهج نصا يحمل نفس الألفاظ والمعاني تقريبا عند حديثه عن القواعد الواجب اتباعها عند البحث عن الحقيقة ، فيقول: (ألا أقبل شيئا ما على أنه حق ما لم أعرف يقينا أنه كذلك : بمعنى أن أتجنب بعناية التهور ، والسبق إلى الحكم قبل النظر) . انظر : ديكارت : مقال عن المنهج ص ٣٠ . ترجمة وشرح : محمود محمد الخضيري . الناشر : مكتبة الأسرة – القاهرة ٢٠١٥م .

(٤) الوصايا – النصائح – ص ٦١ .

العمل بها سبيل لعدم الوصول للحقيقة ، فالفرق الزائغة إنما ضلت لاتباعها الهوى ، وإعجابها برأيها ؛ ولأنها لم تشك يوما فيما هي عليه لتعيد النظر ، وتصححه بآلاته التي تعين على الوصول لليقين ، فردا على سؤال حول كيفية اتهام النفس ، وما الذي ينال به تهمتها ؟ يجيب الإمام المحاسبي قائلا : (لمعرفته ما بنيت عليه في الخلقة أن من شأنها السهو والغفلة ، ولما جرب منها من كثرة غلطها ، وكثرة زللها ، وسوء تأويله ما لا يحصى مرارا كثيرة ، وفي كل ذلك يرى أنه مصيب لا يشك عند نفسه في ذلك ، ثم يتبين له بعد أنه قد كان غفل وغلط ، وكان استحسانه لذلك من قبيل الهوى وتزيين الشيطان) [١]. ثم يفصل الحديث عن الفرق التي ذكرها سابقا ، وأنهم قد أخطأوا حين لم يشكوا في آرائهم ، وأنه قد شك لأجل ألا يحصل له نفس ما حصل معهم فيقول : (ولو لم يبعثه على تهمتها إلا ما يعرف عن عامة هذا الخلق ، من غلطهم في دين الله عز وجل بغير الحق ، وكلهم يزعم فيما يدعي الحق وهو على باطل ، وهو – مع ما هو عليه من الباطل – لا يشك أنه محق صادق ، وأن من خالفه مبطل كاذب ، من جميع أهل الأديان ، ومن أهل البدع من المسلمين ، وكثير من أهل الفتيا والرأي) [٢]. وعلاج هذا الداء يكمن في ضرورة المعرفة واستمرار اتهام النفس ، (، وقد علم أن النفوس طبعها قريب من بعض ، بل كلها لا تعرى من السهو والغفلة ، وما نفسه إلا من أنفس الخلق من ولد آدم (عليه السلام) بنيته كبنيتهم ، وغريزته كغرائزهم ، مع ذلك فإن المزين لهم واحد ، وهو الشيطان المرصد لهم بالعداوة ، والباغي لهم الزلل والعصيان ، فإذا أثبت في قلبه هذه المعرفة بنفسه اتهمها ، ولم يعجل بما يستحسن دون النظر في الكتاب والسنة ، أو مسائلة أهل العلم والبصيرة ، ولم يزل شأن الصالحين العارفين بأنفسهم

---

(١) الرعاية لحقوق الله ص ٣٥٥ .

(٢) الرعاية ص ٣٥٥ .

، ولم يزالوا متهمين لآرائهم خائفين من أنفسهم) [١] .و الإمام المحاسبي بهذا النص يرشد الإنسان إلى ضرورة اتهام النفس بعد معرفته بخطأ غيره ، فإذا كان غيرك في نظرك مخطئا ، ونفوسكم واحدة ، وتفكيركم واحد ، وعدوكم واحد هو الشيطان ، فيجب عليك أنت أيضا أن تتهم نفسك كما اتهمت غيرك ليظهر لك الحق جليا فتتثبت من الحق الذي أنت عليه ، أو تعرف مكامن الخطأ فتستخرجها بالنظر الصحيح لتصل بعدها إلى الحقائق الثابتة التي لا تقبل الشك .

٢- حصر مواضع الشك والنظر : هذه قاعدة جليلة في منهج المحاسبي في الوصول لليقين ؛ إذ إنه يرمي إلى ضرورة معرفة الأمور التي هي محل الشك والنظر عند ضرورة النظر ، حتى يكون النظر مثمرا ، ولا يكون شكا عاما لا يحمل بحثا عن الحقيقة ، فصحة النظر بالشك تبدأ من تحديد المعرفة المشكوك في صحتها ، مع استصحاب المعرفة بوجود مسلمات لا تخضع للشك ، وأن الشك فيها يجعل البحث عن الحقيقة درب من الوهم والخيال ، يقول المحاسبي : (فليعلم العبد المريد للصواب لدين الله (عز وجل) أن من الكتاب والسنة محكما بيِّن التلاوة مفسرا بإجماع ، وأن ذلك واضح لا يحتاج فيه إلى النظر والبحث ، ولا يجب على النفس التهمة في قبولها واجتنابها إياه . وأن الذي يمكن فيه الخطأ والصواب لضعف ابن آدم وسهوه ، وغفلته وغلبة هواه له ، وتزيين عدوه له : ما اختلف فيه ، أو حادثة يحتاج فيها إلى التمثيل ، والقياس على الكتاب والسنة والإجماع ، فعند ذلك يتهم نفسه ، ويتثبت ولا يعجل ، إذ كان الخطأ في ذلك منه ممكنا ، فالعجلة وترك التثبت غرور وخطأ ، ولا يعتقد ما يستحسنه قلبه وزين في عقله إلا من كتاب

---

(١) الرعاية ص ٣٥٥ .

وسنة ، او ما اجتمعت عليه الأمة) [١].

٣- ضرورة إسقاط الهوى عن القلب . وفيه استبعد الإمام المحاسبي كل عمل قلبي من محبة وبغض قد يعيقه عن الوصول للحقيقة ، سواء كانت لشخص أو لفرقة . وذلك لأن (الحب والبغض إذا أفرطا أنقصا الاعتدال ، وأفسدا العقل ، وصورا الباطل في صورة الحق) [٢].

٤- الوقوف عند الاختلاف مع طلب الحق .

٥- الحذر من معوقات الوصول للحقيقة ، وهي الأهواء المردية . فللهوى مداخل كثيرة بين الحق وطلبه ، وبين اليقين والوصول إليه ، لابد من التخلص منها جميعا حال النظر للوصول لليقين ، ومنها الإعجاب بالرأي ، والحب والبغض ، والأنفة عن قبول الحق ، يقول المحاسبي : (إن الحق في كل أمر بين ، والباطل في كل حال داحض ، إلا أن كثيرا من الناس لا يعرف وجه مطلبه ، وبعضهم يعرف بعضه ويجهل بعضه ، ومنهم من عرف ثم نسي ، ومنهم من يعرف أكثره ، ولا يعرف أسهل طرقه ، وأقرب وجهه) [٣] . ثم يقول : (والذي يمنع من الفهم الأنفةُ التي تمنع من الخضوع للحق ، وحب الغلبة الذي يبعث على الجدل ، والجزع من التخطئة التي تمنع من الإذعان بالإقرار بالصواب) [٤] . فكل تلك معوقات يسببها اتباع الهوى ، لابد من إسقاطها حال النظر والفكر .

---

(١) الرعاية ص ٣٥٧ .

(٢) العقل ص ٢٣٣ .

(٣) انظر : العقل ص ٢٣٣ .

(٤) نفسه ص ٢٣٤ .

٦- التحرز من إصدار الأحكام قبل تبين الحقائق جميعها حسب المتاح أمام الباحث من معارف ، وقد طبق المحاسبي هذه القاعدة في كثير من كتبه وكلامه ، فهو في كل مسألة يريد إصدار حكم فيها بالإيجاب أو السلب يعدد الآراء المختلفة التي وصلت إليه دون تعليق على أحدها إلا في النادر ، ثم يصدر حكمه الذي يرتضيه بعد أن بين المعارف [١].

٧- بيان السبب الذي يبحث عن الحقيقة لأجله ، فالمحاسبي يضع المنهج المعرفي القويم للبحث عن الحقيقة ، والوصول لليقين ، وهو تحديد المسارات المهمة للبحث ، وهي : لماذا أبحث عن معرفة يقينية ؟ وما هي المعرفة التي أبحث عنها ؟ وما هي الوسائل التي أستطيع بها الوصول لمعرفة يقينية ؟

وقد أجاب المحاسبي بدقة عن هذه الأسئلة المطروحة فهو يبحث عن المعرفة لأجل النجاة في الدنيا والآخرة ، والمعرفة التي يبحث عن اليقين فيها هي المعرفة الدينية القائمة على التمسك بتقوى الله تعالى ، وأداء فرائضه والورع في حلاله وحرامه وجميع حدوده [٢]. وسبب آخر لبحثه عن اليقين هو تحصيل السرور في الدنيا والآخرة ، وهذا لا يدانيه عنده شيء (فأي سرور يعدل سرور العلم ، وروح اليقين ، وعظيم المعرفة وكثرة الصواب ، والظفر الذي لا يثبت ولا ينال إلا بحسن النظر ، وطول التذكر ، وتكرار الفكر) [٣] .

وأما الوسائل التي تحقق ذلك ، فقد حددها المحاسبي بخمسة أشياء :

---

(١) انظر على سبيل المثال : تقسيمه للعقلاء عامة ، واختياره للعاقلين عن الله تعالى كونهم أهل العقل . في كتاب : العقل ص ٢١٦ – ٢١٦ .

(٢) انظر : الوصايا – النصائح – ص ٦١ .

(٣) انظر : مائية العقل ص ٢٣٦ .

أولا : النية الصادقة : يراها المحاسبي مرافقة لكل عمل صالح ، ولكل معرفة : (فلا تكون النية إلا بالمعرفة ، ولا تكون المعرفة إلا بنية ، ولا تستغني إحداهما عن الأخرى ، فجد واجتهد في صلاح نيتك ، فإن بها تدرك الخلاص والإخلاص) [١] ، وليست النية الصادقة وحدها هي التي ترافق العمل والمعرفة ، فحيثما كانت صحبها الهوى والشهوة ، وكلهم يردون على القلب ، والمحاسبي ينصح بتخليص النية من جميع الآفات ، فيقول : (فاقصد إلى نيتك ونقها من جميع الآفات ، من الله علينا وعليك بمعرفة النية ، وصلاحها من جميع العيوب) [٢]. ويقول : (فعليك بصلاح نيتك ، فإن بها صلاح آخرتك ودنياك جميعا ، فاقصد أول ما تقصد إلى نيتك ، فإنما العزم بالنية ، ولا يصل إليك شيء من معرفة الرب تبارك وتعالى إلا به ، فعليك بنيتك فإنه عمل خفي فيما بينك وبين الله تعالى ، فلا تعمل شيئا إلا بنيتك) [٣].

والمحاسبي يؤكد على أن الصدق في النية لا يأت بعد حسن القصد والإقبال إلا بتوفيق الله تعالى [٤] ، فهو سبحانه وحده (قادر على أن يسخر الهوى للصدق ، وإن كان فقليل ، والذي يعرف هذا القليل في الناس هم قليل ، والذي يجهله كثير ؛ لأن

(١) الإمام المحاسبي : شرح المعرفة وبذل النصيحة ص ٥٥ . تحقيق : مجدي فتحي السيد . دار الصحابة للتراث بطنطا . ط ١ ١٤١٣هـ ، ١٩٩٣م .

(٢) نفسه .

(٣) نفسه ص ٥٤ .

(٤) الحقيقة أنه ليست النية وحدها عند المحاسبي التي تأتي بتوفيق الله تعالى ، بل كل عمل يعمله الإنسان ، حتى مجرد التفكير الصحيح يراه المحاسبي غير حاصل إلا بتوفيق من الله تعالى ، لكنه يؤكد على ضرورة الطلب والتفكر بالأدوات اللازمة أولا ثم يأتي التوفيق بعد ذلك بفضل الله تعالى ، فالتوفيق من الله تعالى يأتي بعد الطلب وبداية الممارسة . وسيأتي تفصيل ذلك بمشيئة الله تعالى عند الحديث عن العقل . أسأل الله تعالى التوفيق .

الإرادة للعمل قبل العمل ، والهوى والشهوة مما يلي العمل ، والنية والصدق من ورائهما) (١) ، وعلى ذلك فإنه (كلما أراد العبد ، أو هم بالعمل من قريب أو بعيد ابتدر الهوى والشهوة ، والنية الصادقة فيهما إلى القلب بذكر ما يرجى وما يؤمل من مثل ذلك العمل من حاجات الدنيا وشهواها ، ومنافعها ومرافقها ولذاها ، وما يؤنس بمثله من الأشياء ، وما حسن موقعه من الناس ، وذكرهم له بالثناء والمحمدة والقدر والجاه والرفعة والرئاسة) (٢) .

ثانيا : الإرادة الصادقة : هي تلك التي تجعل العبد يميز بين الهوى والشهوة ، وبين النية الصادقة ، وإذا وجدت الإرادة الصادقة استطاع التمييز ، وبالتالي قبول الصدق وترك غيره ، يقول المحاسبي : (ما دامت الإرادة الصادقة غائبة فالقلب يقبل هذه الأشياء لا يرد منها شيئا ؛ لأنه لا بد أن يكون للقلب أمل في هذا العمل الذي أراده وهم به ، والإنسان أكثر شيء نسيانا ، وأكثر النسيان في ذلك الوقت ؛ لأن هذه الأشياء التي جاءت بها النفس والهوى إلى القلب مما ذكرنا من الثناء والمحمدة والرفق والقدر والجاه والرئاسة والمترلة كلها مما يتحلى به القلب ويشتهيه ويرغب فيه ؛ فلذلك تكثر الغفلة والنسيان للإرادة الصادقة) (٣) .

وتتحقق المعرفة الحقيقية حين تكون الإرادة الصادقة أمام الهوى ، وشهوة النفس ، وذلك يتحقق بالتوفيق الإلهي للعبد بعد الطلب : (فمن شاء الله عز وجل أن ينعم عليه حتى تكون الإرادة الصادقة أمام الهوى وشهوة النفس ، وحتى يريد بالعمل وجه الله والدار الآخرة ، ففي هذا يكون شغل القلب عند ذلك وفيما يؤمل فيه من رضى الله عز

---

(١) آداب النفوس ص ١٠٣ .

(٢) نفسه .

(٣) نفسه .

وجل وثوابه ، وما جاءت به النفس والهوى مما ذكرناه لم يقبله القلب ، ورده عليهم . ففي هذا اعظم النعم وعلى صاحبه أكثر الشكر) [١] ، وإن كان العكس فعلى صاحب الإرادة الوقوف للنظر والفكر الكثير حتى ينقي قلبه ، يقول المحاسبي : (وإن كانت النفس والهوى والشهوة سابقات على الإرادة الصادقة ، فلا بد لصاحبها من الوقوف والنظر والفكر حتى ينقي قلبه مما عرضت به النفس والهوى والشهوة ، ويجعل إرادة الله مكان ذلك وأمامه فيقبله القلب ساءه أو سره ، ثم يتحفظ ويتعاهد حتى يختم العمل الذي افتتحه بالإرادة الصادقة بمثل ذلك ، وبعد فراغه من العمل ما دام الروح في جسده) [٢].

وهذا الأمر يعتبره المحاسبي من أصعب درجات الوصول في المعرفة ، وتصحيح العمل لله تعالى ، بل هو عنده أشد من نقل الصخر ، فيقول : (واعلم أن إحكام هذا أعز وأشد من نقل الصخر ، وركوب الأسنة إلا من رزقه الله إحكام ذلك ، والعناية به مخافة تلف نفسه ، وإحباط عمله ؛ لأن العدو ملح مجد محتال له في ادخال الآفات التي تفسد الأعمال ، فهو يرصده قبل دخوله في العمل وبعدما يدخل فيه وبعد ما يخرج منه) [٣] . ورغم ذلك كله فإنه ربما يعرض العدو للإنسان بعد تقديم الإرادة الصادقة والنية الصادقة ، ونفي الهوى ، ومخالفة الشهوة ، (فإن صده بعد دخوله في العمل فعرض له بما ذكرنا من الآفات التي تفسد الأعمال ، فإن قبلها حتى يختم العمل بقبولها فسد عليه أصله الصحيح الذي كان قد أصل ودخل بها في العمل . وإن هو لم يقبل ما عرض له به في العمل ونفاه ودفعه لم يضره ذلك شيئا . وإن هو قبله ثم انتبه قبل أن يفرغ من العمل

---

(١) نفسه ص ١٠٣ –١٠٤ .

(٢) آداب النفوس ص ١٠٤ .

(٣) نفسه .

فندم ورجع وتيقظ وأزال الغفلة ثم ختم العمل بالندم لم يضره ذلك شيئا) [١].

ثالثا : مراقبة الله تعالى عند كل عمل : المراقبة عند المحاسبي من الأمور الجليلة في طريق تحقيق اليقين ، وهي عنده درجتان : بداية ، والمراقبة فيه : (علم القلب بقرب الله عز وجل) [٢] ، وهذا هو أول المراقبة ، ولا يسمى العبد فيه مراقبا .

وإنما يسمى مراقبا في الدرجة الأخرى من المراقبة ، وتعني عند المحاسبي : (دوام علم القلب بعلم الله عز وجل ، في سكونك وحركتك علما لازما للقلب بصفاء اليقين ، وكشف غطاء حجب الظلم ، غير قاطع عن النظر بمشاهدة الغيب ، فعندها تغيب أسباب الغفلة عن القلوب بدواهيها ، فيعقل عن الله تعالى نصائح الحكمة بما فيها ، ويكشف له اليقين عما فات منها) [٣]، ويصل العبد لهذه الحالة (بقطع علائق الأشغال ، ولزوم العلم ، والتعاهد بالعناية والرعاية) [٤] .

ويرجع المحاسبي أهمية المراقبة في هذا الباب لسبب كثرة الخداع والغلط ، والخطأ والعمد ، والنسيان والفتن والبلايا ، وغيرها كثير ، فإن الآفات (أكثر من أن يضبطها الكتاب ، وصحته أعز من أن يبلغها الآمن المخدوع المغتر بظاهر الكتاب ، وظاهر العلم ، وإنما يدرك ذلك كله ويعرفه أهل العناية بأنفسهم الذين خافوا على أعمالهم أن تبطل ، وخافوا على أنفسهم أن تتلف ، ولا ينبغي لعاقل أن يفتر عن مفاتشة همته ، ومحاسبة نفسه ، ونقاء ضميره ومراقبة الله سبحانه وتعالى عند كل عمل يريد أن يعمله وإلا فهو

---

(١) آداب النفوس ص ١٠٤ –١٠٥

(٢) الوصايا – القصد والرجوع إلى الله ص ٣١٣ .

(٣) نفسه .

(٤) نفسه ص ٣١٤ .

مخدوع ، والله نسأل التوفيق والفهم والعزم الصحيح والإرادة الصادقة) [١] .

والمراقبة أيضا تجمع في طياتها محاسن كثيرة ، فقد طلب السائل من المحاسبي أن يدله على حالة تثبته في التواضع ، وتجمع له الرعاية ، وتمزج السرور بالمقدور ، وتسقط عنه كثيرا من الإعجاب ، وتدخل عليه منها مطالع الامتناع عن كل سبب يجر إلى دواعي فتنته . فأجابه : (إن الحالة التي تجمع لك الحالات هي كلها في حالة واحدة هي المراقبة ، فألزم نفسك وقلبك دوام العلم بنظر الله إليك في حركاتك وسكونك وقعودك ، وذهابك ومجيئك ، فإنك بعين الله عز وجل في جميع منقلبك ، وإنك في قبضته حيث كنت ، وإن عين الله على قلبك ، فناظر إلى سرك وعلانيتك) [٢]. (ومن أشرف العبادة : أن تراقب الله سبحانه بما يحب الله ، فإذا فترت عن ذلك راقبته فيما يكره ملتمسا العود إلى الحالة الأولى التي كنت عليها حريصا على ذلك ، فيحدث لك حينئذ إليها حنين شديد ، فإنه إذا رآك كذلك تحن وتحرص رد عليك ما سلبك) [٣].

رابعا : الاعتبار : يعرفه المحاسبي بأنه : (الاستدلال بالشيء على الشيء ، وهو أن تنظر بقلبك إلى الشيء المتقن، فيلحق قلبك التعجب من نفاذ القدرة، وإتقان الصنع ، وحسن التدبير فيه ، ثم لم تقع عينك على شيء إلا دلك الشيء على غيره) [٤].

وبالاعتبار يزداد الباحث معرفة ، ويزداد المؤمن إيمانا ؛ فبالاعتبار (يدلك المخلوق على الزيادة في معرفة الخالق ، ويدلك المصنوع على الزيادة في معرفة الصانع ؛ ليكون منك التعظيم له ، وتزداد في معرفة القدرة ، فتنظر إلى الأشياء بعد ذلك بخالقها ،

---

(١) آداب النفوس ص ١٠٩ .

(٢) الوصايا – القصد والرجوع إلى الله – ص ٢٨١ .

(٣) آداب النفوس ص ١٣٢ .

(٤) الوصايا – القصد والرجوع إلى الله – ص ٢٨٨ .

وإلى المصنوع بصانعه ، وإلى المفطور بالفاطر ، فتنظر إلى الأشياء بعواقبها ، ثم يدلك وجود ما علمت منها على الشيء المغيب عنها ، أنه أعجب مما رأيت وعلمت ، وأن ما علمت عند ما لم تعلم كلا شيء في لا شيء) [١].

والناس متفاوتون في الاعتبار (على قدر صحة العقول ، وقوة الإيمان) [٢]. وهم متفاوتون كذلك على (قدر طهارة القلوب ؛ لأن مخرج الاعتبار من القلب ، فإذا خرج من قلب طاهر نفذ في الغيب ، وسمت به الهمة ، وتراقى به الفكر ، ولم يمنعه مانع من الأدناس ، فوافق مراد القلب ، وصفى معرفة النفس) [٣]. والاعتبار يكثر ويثمر بالتفكر ، وإذا قل التفكر قل الاعتبار بالتبعية ، فإنه (لا غناء بالعبد عن التفكير والنظر والذكر ليكثر اعتباره ، ويزيد في علمه ، ويعلو في الفضل ، فمن قل تفكره قل اعتباره ، ومن قل اعتباره قل علمه ، ومن قل علمه كثر جهله ، وبان نقصه ، ولم يجد طعم البر ، ولا برد اليقين ، ولا روح الحكمة) [٤]. فصحة الاعتبار وسيلة من وسائل تحقيق المعرفة للوصول لليقين ، وذلك لأن الاعتبار عند المحاسبي يقوم مقام المشاهدة والعيان طالما كان صادقا ، وبه ينصح المحاسبي دائما عند كل معرفة ، فيقول : (واستعن في أمرك كله بالاعتبار ؛ فإن الأمر لا يزال مستورا منك ، أو غائبا عنك فإذا نظرت إليه نظر المعتبر كاد أن يقوم لك الاعتبار مقام المخبر المعاين لما قد غاب عنك ، ومقام الكاشف لك عن المستور عنك ، حتى تنظر إلى زين الأمور وشينها وحسنها وقبيحها ، وتعرف من أين صار الحسن حسنا ، والقبيح قبيحا ، فتتبع من ذلك ما فيه نجاتك ، وتجتنب ما فيه

---

(١) الوصايا – القصد والرجوع إلى الله – ص ٢٨٨ –٢٨٩ .

(٢) نفسه .

(٣) نفسه .

(٤) العقل ص ٢٣٦ .

هلكتك وتعرف الناس بالاعتبار على منازلهم في لحن القول ، ولحن الفعل ، وتعرفهم وتعرف منازلهم ومذاهبهم بنور الاعتبار ومواهب الإلهام إن شاء الله تعالى) (١) .

خامسا : الاستكثار من المعرفة : يرى المحاسبي أن ليس للمعرفة حد تنتهي إليه ، بمعنى أن يعتقد الباحث أنه قد اكتفي معتقدا أنه وصل لمراده ، فيجب الاستكثار من المعرفة كوسيلة من الوسائل التي تحقق اليقين المعرفي ، يقول المحاسبي : (فاستكثر من المعرفة ما قدرت فليست المعرفة كالعمل ، للعمل حد ينتهي إ ليه ، وليس للمعرفة حد تنتهي إليه ؛ لأنك تريد بالمعرفة استكمال أمر الله ، وإقامة حقه ، ولا يبلغ ذلك أحد ؛ لأنه سبحانه وتعالى أجل وأعظم من أن يبلغ الآدميون كنه حقه ، غير أنهم يتباينون فيه بزيادة المعرفة ونقصانها مع المعرفة والأُنس والروح والفرح والراحة ؛ لزيادتها نعمة من الله ونقصانها عقوبة من الله بذنب أو تضييع شكر) (٢) .

٨- الإقرار بصعوبة الكشف عن الحقيقة وخوف فواتها .

٩- تحديد المعرفة المراد بحثها ، ثم الانكماش في طلبها ، أو طلب من يدل عليها ، يقول المحاسبي : (فعظمت مصيبتي لفقد الأولياء الأتقياء ، وخشيت بغتة الموت أن يفجأني على اضطراب من عمري لاختلاف الأمة ، فانكمشت في طلب عالم لم أجد من معرفته بدا ، ولم أقصر في الاحتياط ولا في النصح) (٣) .

١٠- الاستقراء التام لجميع أفراد الموضوع المراد بحثه ، ثم استبعاد المعارف غير المرغوب

(١) آداب النفوس ص ١٢٥ .

(٢) آداب النفوس ص ١٢٦ . ونلمح من خلال هذا النص أن المحاسبي دائما ما يربط بين المعرفة وحسن العبادة ، فهو يرى أن العبد عندما يصدق في طلب المعرفة والعلم والعمل ، فإن الله تعالى يوفقه ، وأنه إن قصر في العبادة أو في الشكر فإنه سبحانه ينقصه في المعرفة والعلم والعمل .

(٣) الوصايا – النصائح – ص ٦٢.

فيها . (١)

فالمعرفة التي يبحث عنها المحاسبي هي تلك المعرفة اليقينية التي لا يتطرق إليها شك ، وهي تلك المعرفة التي تحقق النجاة في الدنيا والآخرة ، ويراها في التمسك بتقوى الله تعالى ، وأداء فرائضه ، والورع (٢) .

وفي نص جامع للمراحل التي مر بها في المعرفة ، والتي سبق الإشارة إليها ، محددا أن مراحل الوصول لليقين ومن بعده النجاة تتحقق بفضل الله تعالى يقول المحاسبي : (واعلم يا أخي أن الله سبحانه وتعالى جعل نجاة العباد برحمته في المعرفة ، ثم في الإرادة ، ثم في ترك ما أمرهم بتركه ، ثم في العمل بما أمرهم به ، ثم في شكر نعمه التي أنعم بها عليهم قديما وحديثا ، ظاهرا وباطنا) (٣). وهذا الترتيب عند المحاسبي مقصود ، فإن العلم يأتي أولا ثم من بعـــده العمل الذي يكون على حسب العلم ، يقـــول المحاسبي : (واعلم أن أنجى طـــريق للعبـــد : العمل بالعلم ، والتحرز بالخوف ، والغنى بالله عز وجل) (٤).

(١) سيأتي مزيد بيان لهذه المسألة كواحدة من مراحل المنهج الذي اتبعه المحاسبي للوصول لليقين في المعرفة .

(٢) انظر : الوصايا – النصائح – ص ٦١ .

(٣) آداب النفوس ص ١٢٠ .

(٤) رسالة المسترشدين ص ١٣٠ .

المرحلة الثانية : تجريد آلة المعرفة

عقب تحديد المعارف المرغوب فيها ، والدعوة إلى إسقاط الهوى ، لابد من تحديد آلة تبحث عن الحقيقة بوسائلها الصحيحة ، مجردة عن كل العلائق المعوقة عن الوصول للحقيقة لتضمن صحة البحث في المعارف ، ومن ثم الوصول لليقين فيها .

والمحاسبي يرى أن هذه الآلة هي العقل الممتزج بالدليل الشرعي ، الموفق من الله تعالى للمعرفة .

فالمعرفة في أساسها تصدر عن العقل (١) ، وهو زينة البشرية ، ومصدر للمعرفة الإلهية (فما تزين أحد بزينة كالعقل ، ولا لبس ثوبا أجمل من العلم ؛ لأنه ما عرف الله إلا بالعقل ، ولا أطيع إلا بالعلم) (٢) .

والعقل هو الذي تقوم به الحجة على العباد ، وهو مناط التكليف (فإنما خاطب الله تعالى عباده من قبل ألبابهم ، واحتج عليهم بما ركب فيه عقولهم ، وما الله بظلام للعبيد) (٣) . (وقال سـبحانه وتعالى : ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ١٦٤] (٤) ، ﴿ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر : ٤٢] ؛ لأنه سبحانه جعل العقول معادن الحكمة ، ومقتبس الآراء ، ومستنبط الفهم ، ومعقل العلم ، ونور الأبصار ، إليها يأوي كل محصول ، وبها يستدل على ما أخبر من علم الغيوب ، فبها يقدرون أعمالهم قبل كونها ،

---

(١) مائية العقل ص ٢٠٥ .

(٢) رسالة المسترشدين ص ٩٨-٩٩ .

(٣) مائية العقل ص ٢٠٧ . وانظر : الوصايا – القصد والرجوع إلى الله تعالى – ص ٢٥٢ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ١٦٤ . سورة الرعد آية رقم ٤ ، سورة النحل آية رقم ١٢، ٦٧ ، سورة العنكبوت آية رقم ٣٥ . سورة الروم آية رقم ٢٤ ، ٢٨ . سورة الجاثية آية رقم ٥ .

ويعرفون عواقبها قبل وجودها ، وعنها تصدر الجوارح بالفعال بأمرها) (١) .

وتلك هي مهمة العقل الرئيسية التي نادى بها المحاسبي ، وهي ضرورة تحديد المعارف قبل الخوض في البحث ، وضرورة تحديد المراد من المعرفة قبل الولوج في البحث عنها ، وتقدير النتائج الفرضية للنتاج البحثي إيجابية كانت أو سلبية .

تعريف العقل ، وكيفية تحقيق المعرفة .

تحقيقا للمبدأ الذي رسمه المحاسبي لنفسه في طلب المعرفة ، حين أكد على ضرورة التحرز من إصدار الأحكام قبل البيان الكامل ، وضرورة استقراء المعارف المتاحة قبل اختيار أحدها أو نفيه ، فإنه قد تكلم في سرد تعريفات العقل .

وقد ذكر الآراء في تعريف العقل وما هيته ، مبينا أن من التعريفات المطروحة للعقل أنه غريزة وضعها الله تعالى في أكثر خلقه ، لم يطلع عليها العباد بعضهم من بعض ، ولا اطلعوا عليها من أنفسهم برؤية ، ولا ذوق ، ولا طعم ، وإنما عرفهم الله إياها بالعقل منه . (٢)

وعند المتكلمين فالعقل هو صفوة الروح أي خالص الروح (٣) . وقال قوم : هو نور وضعه الله طبعا وغريزة ، يبصر به ، ويعبر عنه (٤) . وزعم آخرون أن العقل معرفة نظمها الله تعالى ووضعها في عباده يزيد ويتسع بالعلم المكتسب (٥) . وقيل هو البصيرة

---

(١) فهم القرآن ص ٢٦٦ .

(٢) مائية العقل ص ٢٠١-٢٠٢ .

(٣) مائية العقل ص ٢٠٤ .

(٤) نفسه .

(٥) نفسه ص ٢٠٥ .

والمعرفة [١] .

ثم اختار المحاسبي من هذه التعريفات التعريف الأول ، فيقول : (والذي عندنا أنه غريزة والمعرفة عنه تكون) [٢] ، (ومما يدل على أن العقل هو الغريزة التي بها عرف فأقر ، وعرف فأنكر ؛ لأن الإنكار فعل ، فكذلك ضد المعرفة فعل ، فمنه فعل عن طبع يوحيه الطبع كالضرة[٣] ، كمعرفة الرجل نفسه وأباه وأمه ، والسماء والأرض ، وجميع الأشياء التي تشاهد ، ولولا الاستدلال بالعلم الذي سمعه من الأشياء ثم رأى الأشياء لعرفها برؤيا ، ولم يعرفها باسم ولا تفصيل بين معانيها ، فلم يعرف عاقل أسماء الأشياء إلا بالتعليم منذ هو طفل لما يسمع ويرى ، عرف بعقله الأشياء ، وفصل بين معانيها) [٤] . (فالعقل غريزة جعلها الله تعالى في الممتحنين من عباده ، أقام به الحجة على البالغين للحلم الحجة ، وأتاهم خاطب من قبل عقولهم ، ووعد وتوعد ، وأمر ونهى ، وحض وندب ، فهو غريزة لا يعرف إلا بفعاله في القلب والجوارح ، لا يقدر أحد أن يصفه في نفسه ، ولا في غيره بغير أفعاله ، لا يقدر أن يصفه بجسمية ، ولا بطول ، ولا بعرض ، ولا طعم ولا شم ، ولا مجسة ، ولا لون ، ولا يعرف إلا بأفعاله) [٥] .

فالمحاسبي – من خلال هذا النص – يرى أن العقل غير موصوف ، وغير معروف في مكان محدد ، وأنه شيء غير القلب، وأن المتصف به لا يعرف إلا بأفعاله ، فإن كانت

---

(١) نفسه ص ٢١٠ .

(٢) نفسه ص ٢٠٥ .

(٣) بمعنى : الضرورة . انظر هامش مائية العقل ص ٢٠٥ .

(٤) مائية العقل ص ٢٠٥–٢٠٦ بتصرف يسير .

(٥) نفسه ٢٠٣–٢٠٤ .

أفعاله عاقلة بتمييزه بين النافع والضار ، عرف أن الله تعالى قد من عليه بالعقل ، وميزه عن أهل الجنون والحمقى الذين قلت عقولهم (١) .

فالناس تستدل على عقل العاقل (إذا رأوا من أفعاله ما يدلهم أنه قد عرف ما ينفعه من دنياه ، وما يضره ، إذا رأوه طالبا عاملا ما ينفعه من دنياه ، مجانبا لما يضره من دنياه ، فسموا من كان كذلك عاقلا ، وشهدوا أن له عقلا ، وأنه لا مجنون ، ولا تايه ، ولا أحمق ، فإن رأوه بخلاف ذلك شهدوا أنه مجنون قد تغشا عقله من الآفة ما أذهله ، وأزال معرفته بمنافعه و مضاره) (٢) .

لكن المحاسبي لم يقف عند كون العقل غريزة فحسب ، بل عرفه بتعريف آخر حدد فيه مكانه ووظيفته ، فقال : (العقول : أنوار بصيرة أسكنها الله عز وجل القلوب ، يفرق بها العبد بين الحق والباطل ، في جميع ما يرد عليه من خطرات قلبه ، ونزغات عدوه ، ووساوس نفسه ، وما تعبد برعايته) (٣) .

والفرق بين التعريفين عند المحاسبي – فيما أرى – أن التعريف الأول عام يشمل كل المخلوقات العاقلة ، فالله سبحانه وتعالى أعطى العقل للجميع ، وميز البعض بالفهم ، وأزال عن مسلوب العقل صفة العاقل، ووصفه بالجنون ، فهو غير مكلف لذهاب عقله.

وعلى ذلك فالعقل غريزة عامة في المخلوقين بها يفهمون ما يسمعون من أمور الدنيا والدين، (وقد روي في التفسير لما قال الله تعالى لموسى (عليه السلام) ﴿ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴾ [طه : ١٣] قيل : اعقل ما أقول لك ، وهذه خصلة يشترك فيها أهل غريزة

(١) انظر : مائية العقل ص ٢٠٢ بتصرف .

(٢) مائية العقل ص ٢٠٢ .

(٣) الوصايا – القصد والرجوع إلى الله تعالى – ص ٢٥١ .

العقل التي خلقها الله فيهم من أهل الهدى وأهل الضلالة من بعض أهل الكتاب لما تقدم عندهم من أهل الدين ، ويجتمع عليها أهل كل إيمان وضلال في أمور الدنيا خاصة ، والمطيع والعاصي ، وهو فهم البيان) (١) . (وجميع الممتحنين المأمورين من العقلاء البالغين كلهم لهم عقول يميزون بها أمور الدنيا كلها ، الجليل والدقيق ، وأكثرهم للآخرة لا يعقلون) (٢) .

وأما التعريف الثاني فيمثل عند المحاسبي الطائفة التي عقلت وفهمت البيان ، ثم تفضل الله تعالى عليهم بزيادة العقل عنه سبحانه وتعالى، ووفقهم للعمل بما عقلوا (٣). فهم جمعوا بين عقل الغريزة ، وعقل الأنوار ، وهذا التفضل منه سبحانه وتعالى عليهم ليس عن اجتهاد منهم في العقل عن الله تعالى ، بل هو بمجرد طلبهم ، وسعيهم في تحقيق النجاة ، وإدراك صحيح المعرفة ، والتفكر والاعتبار .

فإنه سبحانه وتعالى بعد أن أعطى عقل الغريزة لكل خلقه (استخلص من عباده خالصة من خلقه فهمت عنه قوله بعقولها ، فاتسع لها ما خفي عن الأبصار ، فآمنت به وبما غيبته حجب غيوبه من لدن عرشه إلى منتهى علمه ، ثم عارضها هاجس الشك فأبته وذلك بلطف البصير ، وما وصفه لها وبفضله عليها ، فكان عندها ما أخبر به عما غاب مما كان ومما هو كائن كرأي العين فكانت بذلك مصدقة غير مكذبة ولا مرتابة) (٤).

ولا يقف الأمر عند هذا الصنف ، بل إن المحاسبي يتحدث عن صنف آخر أرقى

---

(١) مائية العقل ص ٢٠٨ .

(٢) نفسه ص ٢٠٧ .

(٣) نفسه ص ٢١٧ .

(٤) فهم القرآن ص ٢٦٧ .

من الأول اصطفاهم الله تعالى واختصهم منهم قائلا : (ثم استخص من الخالصة الأولى خاصة ثانية من المقرين والمعترفين له بربوبيته المصدقين بقوله ، فعظموا قدره ، فأجلوه وهابوه واستحيوا منه ، وخافوه وحذروا نقمته وبأسه ، فتطهروا من كل دنس ، وبذلوا له المجهود من قلوبهم وأبدانهم ، ووصفوه بصفاته الكاملة ونزهوه من كل ما لا يليق ، وأفردوه في كل معنى ولم يساووه بشيء من خلقه ، فأفردوه بالمخافة والرهبة ، والآمال والرغبة ، والثقة به وحسن التوكل عليه فأعتقوا من خدمة الدنيا أبدانهم ، وأفردوا مولاهم بالمعاملة بإخلاص النية له بطلب مرضاته واجتناب مساخطه وأيقنوا بما وعد وتوعد به فكان عندهم كرأي العين ، سلكوا سبيل الرشاد بالبصائر النافذة على منهاج الكتاب والسنة [١] ، فبانوا من عوام المسلمين بالفضل والطهارة فكانوا أئمة الهدى وأعلام المتقين ومصابيح العلم ، ومفزع كل ملهوف في الدين وطالب لسبيل النجاة) [٢] . وذلك كله بسبب فهمهم عن الله تعالى ، فإنه سبحانه لم يعطهم (اليقين به وبما قال عن رؤية منهم لربهم ، ولا معاينة منهم لما وعد وتوعد ، ولكن عن الفهم بما قال جل وعز في كتابه بالتذكير والتفكير والتثبيت والتدبير ، فرددوا النظر وأجالوا الفكر وكرروا الذكر ، وتدبروا العواقب ، وطلبوا معاني الدلائل ، فطالعوا الغيوب وشاهدوا بقلوبهم الآخرة فصاروا في الدنيا بأبدانهم وفي الآخرة بأرواحهم وأجسامهم فيها كعواد وعقولهم معلقة بالملكوت وذلك بغير ابتداء منهم اجتنبوه ولا نالوه ولكن بتفضل الله جل وعز عليهم وتعبده إياهم) [٣] .

وبذلك يظهر جليا أن العقول عند المحاسبي تبدأ في طريق طلبها للمعرفة بالغريزة

---

(١) يؤكد المحاسبي دوما على ضرورة العمل بما شرع الله تعالى ، وإعمال الفكر في الكتاب والسنة ، وليس بالرأي وحده .

(٢) فهم القرآن ص ٢٦٨ . بتصرف يسير .

(٣) نفسه ص ٢٦٨ -٢٦٩ .

التي وضعها الله فيها ، ثم يدرك الله تعالى بعض عباده بلطفه ، وفضله ليميزهم عن بقية خلقه بالعقل عنه سبحانه وتعالى ، وفهم مراده .

فالعقل في بداية المعرفي كسبي مجرد عن الهوى ، وفي نهاياتها وهبي بفضل الله تعالى ، وقد أكد الإمام المحاسبي على هذا الأمر في أكثر من كتاب ونص له . فيقول : (ومن أراد الله به خيرا وهب له العقل ، وحبب إليه العلم) (١) .

ويطبق هذا المعنى على واحد من معاني العقل ، وكيف يرتقي العقل من طلب المعرفة إلى تحقيقها ، فيتحدث عن العقل بأنه : (البصيرة والمعرفة ، بتعظيم قدر الأشياء النافعة والضارة ، في الدنيا والآخرة ومنه العقل عن الله تعالى ، فمن ذلك أن تعظم معرفته وبصيرته بعظيم قدر الله تعالى ، وبقدر نعمه وإحسانه ، وبعظيم قدر ثوابه وعقابه لينال به النجاة من العقاب والظفر بالثواب) (٢). ثم يعدد المحاسبي المترتبات الناتجة عن ذلك قائلا : (فإذا كان لله معظما كان لله مجلا هايبا ، وإذا كان لله مجلا هايبا كان منه مستحيا ، وإلى طاعته مسارعا ولمساخطه مجانبا ، وإذا كان معظما لما ينال به النجاة من العقاب والظفر بالثواب عني بطلب العلم ورغب في الفهم والعقل عن الله عز وجل أكثر همته(٣) ، وإذا عني بطلب العلم بذلك استدل به على عظم قدر المولى وقدر ثوابه وعقابه ، وإذا استدل على ذلك أبصر وفهم حقائق معاني البيان ، فإذا فهم عقل عظيم قدر الله تعالى وعرضه على الله سبحانه وعقابه وثوابه ، وإذا عظم قدر ذلك هاب الله وفرق ورجا ورغب واشتاق فكأنما يعاين ذلك كرأي العين ، فكان عن الله تعالى عاقلا

---

(١) رسالة المسترشدين ص ١٦٦ .

(٢) مائية العقل ص ٢١٠ .

(٣) يؤكد المحاسبي في هذا النص – مؤكدا ما سبق قوله – على ضرورة طلب العلم ، والرغبة في الفهم المنبعثة ذاتيا من داخل الباحث ، مع ضرورة تحديده المسبق للمعرفة المراد بحثها .

وسمي ذلك منه عقلا إذ كان بالعقل طلب ذلك ، وبالعقل فهم ذلك ، وبالعقل لزم ذلك ، وبالعقل جانب ما يزيله عن ذلك ، فهذا الذي عقل عن ربه ، ألم تسمعه عز وجل يقول ﴿ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ﴾ [الحاقة : ١٢] ، قال : أذن عقلت عن الله تعالى ، يعني عقل عن الله ما سمعت أذناه مما قال وأخبر فهذا هو العقل) [١]. (فإذا تم عقل المؤمن عن ربه أفرده عز وجل بالتوحيد له في كل المعاني ، فعلم أنه مالك له لا غيره ، وأنه عتيق ممن سواه ، فتواضع لعظمته واستعبد وخضع لجلاله ولم يذل لمن سواه ، وعقل عنه أنه الكامل بأحسن الصفات المتره من كل الآفات المنعم بكل الأيادي والإحسان ، فاشتد حبه له لما يستأهل لعظيم قدره وكريم فعاله وحسن أياديه، وعقل عنه أنه لا يملك نفعه وضره في دنياه وآخرته إلا هو) [٢] .

وأما الصنف الآخر المناقض للأول ، فهو الذي زال عنه العقل عن الله تعالى (ومعه غريزة العقل التي فرق الله تعالى بها بين العقلاء والمجانين فهو غير عاقل عن الله عز وجل ، وهو عاقل للبيان الذي لزمته من أجله الحجة ، وقد وصف الله عز وجل هذا في كتابه عن رجال وســما لهم عقلا ، فقال تعالى ﴿ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف : ١٧٩] : يعني عنه ، وقال الله عز وجل ﴿ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ ﴾ [الأحقاف : ٢٦] يعني : عقولا ﴿ وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ [الأحقاف : ٢٦] ، ثم سمى بعض الكفار من أهل الكتاب عاقلا للبيان الذي لزمتهم به الحجة ﴿ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٧٥] ، فأخبر أنهم لا يعقلون يعني عنه ، وعن ما قال من عظيم قدره المبين عنه ثم قال ﴿ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ

(١) مائية العقل ص ٢١١ .

(٢) مائية العقل ص ٢٢١ .

بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾ [البقرة : ٧٥] ، يعني عقل البيان .

وآخرون لهم عقول الغرايز لا يعقلون البيان ، ولا المبين عنه بالفهم له إلا أنهم يسمعون بلغة يعرفونها كلاما لا يعقلون معانيه بالفهم له ، كمشركي العرب فقال : ﴿ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان : ٤٤] (١) .

وعود ذلك كله عند المحاسبي راجع لاتباع الهوى ، الذي به صارت عقولهم غير مجردة، وهم في بداية مرحلة الطلب المعرفي ، فهؤلاء قد ركب الله فيهم عقول ، وعلى الرغم من ذلك (فإنهم لم يعقلوا ما قال الله عز وجل ؛ لإعجابهم برأيهم ، ولتقليدهم آباءهم وكبراءهم ، وقد كانت لهم عقول غرايز يعقلون بها أمر دنياهم) (٢).

ويحدد المحاسبي علاج هذا الداء بضرورة البعد عن الهوى ، فهؤلاء (لو تركوا الإعجاب بالرأي وتقليد الكبراء ، ثم تدبروا لعقلوا ما قال الله ، ولكن أعجبوا بآرائهم وقلدوا كبراءهم ، فقال عز وجل ﴿ وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴾ [الكهف : ١٠٤] (٣) .

وبهذا النص الأخير تتأكد ضرورة ملحة أكدها المحاسبي في كامل منهجه في بحثه عن اليقين ، وخاصة من خلال العقل ، وهي إسقاط الهوى حتى يتسنى صحيح النظر ، وأن اتباع الهوى هو أساس الضلال في الأديان ، وهو أساس الخطأ في التفكير .

فإذا أسقط الباحث هواه الذي علق بعقله من تصورات سابقة ، أو أحكام مسبقة ، كتقليد الآباء ، واتباع أفكار دون تحليل لها ، فقد قام بتجريد آلة المعرفة ، بحيث

---

(١) مائية العقل ص ٢١٣ .

(٢) نفسه .

(٣) نفسه . وانظر ص ٢١٥ .

يستطيع أن ينظر بها نظرا مجردا يصل فيه إلى نتائج صحيحة [(١)].

ويعقد المحاسبي مقارنة بين الفريقين في مسألة فهم كلام الله تعالى ، موضحا أن الذي أسقط الهوى استوضح مفهوم كلام الله تعالى في كتابه عكس من اتبع الهوى وآثره ، فيقول : (فلما عقلوا ذلك عن ربهم ابتغوا منه الشفاء والهدى والرحمة ، فداووا به قساوة قلوبهم ، وغسلوا به درن ذنوبهم ، ووضعوا دواءه على أدواء قلوبهم ، ونفوا به سوء النيات من ضمائرهم ، وأزالوا به وحر صدورهم ، ونظروا ببصائرهم إلى ما يشبه الشبهات من سوء الدلايل ، ومكايد الشيطان ، وزخرف المبطلين ، وكشفوا بمنار دلايله ما وارته الظلمات ، وغطته الشهوات من خفيات الغيوب ، ومعالم الطريق المضروب على المحاج الواضحات والبرهان النير ، فنظروا بنور هداية كلام الرب جل ذكره ، وواضح دلايله إلى ما خفي عن الغافلين المؤثرين لأهوائهم على استيضاح كتاب ربهم جل مولانا وتعالى ، فهتكوا بنوره حجاب كل ظلمة وكشفوا بتبيانه غطاء كل ضلالة وبدعة ؛ لأنه الدليل الواضح والصراط المستقيم الذي جعله الله للناس إماما ورضي به بينهم حاكما فأماتوا عنده كل شهوة وانبعثوا بتأمله إلى كل رغبة وحنوا بتشويقه إلى جوار المولى الكريم) [(٢)].

---

(١) يعتبر المحاسبي سباقا في هذه المسألة متأثرا بالقرآن الكريم ، وسنة النبي (صلى الله عليه وسلم) على كثير من الفلاسفة الذين جاؤوا بعده كبيكون حين قسم الأوهام التي تعوق عن الوصول عن الحقيقة إلى أوهام أربعة ، وهي أوهام الكهف ، والجنس ، و القبيلة ، والسوق واللغة .ويعتبر المحاسبي بحق رائد هذه العلوم المبنية على التجربة ، وأنه قد أثر في كل من أتى بعده تأثيرا مباشرا أو غير مباشر . فلقد أثر تأثيرا مباشرا في الإمام أبي حامد الغزالي (٥٠٥هـ) ، ومن ثم أثر تأثيرا غير مباشر في كل من قرأ أو تعلم أو تأثر بالإمام الغزالي في الفكر . انظر : أستاذ السائرين ص ٢٣ . وانظر : فرنسيس بيكون : الأورجانون الجديد ص ٣٥-٤٥ . ترجمة د/ عادل مصطفى . رؤية للنشر والتوزيع . ٢٠١٣ م .

(٢) فهم القرآن ص ٢٦٩ – ٢٧٠ .

حدود العقل

إذا كان العقل هو آلة المعرفة ، وهو في بداية المعرفة والبحث عن اليقين كسبي ، وفي نهايته وهبي ، فإن المحاسبي يؤكد على مسألة هامة في العقل ، وهي أن له حدود لا يستطيع الوصول إليها ، وأن معرفة العقل لحدوده هي قمة العقل ، وهذا الأمر هو إدراك الله سبحانه وتعالى : (فلا أحد يساوي الله عز وجل في العلم بنفسه ، فيعرف عن عظمته تعالى كمال صفاته كما يعلم الله عز وجل عن نفسه ، فأعظم العاقلين عنده ، العارفين عقلا عنه ، ومعرفة به الذين أقروا بالعجز أنهم لا يبلغون في العقل والمعرفة كنه معرفته) (١) . (فسبحانه جل جلاله وثناؤه ، وتقدست أسماؤه ، حصرت قلوب أولي الألباب عن التفتيش في ذلك بكيفيته ، وانقطعت أوهامهم عن مبلغ استدراك علومهم بكليته، ورجعت أبصار قلوبهم خاسئة إجلالا لعظمته) (٢) .

وبذلك تكون القسمة المنطقية للعقلاء من حيث الفهم عن الله تعالى ، وتجريد آلة المعرفة عند المحاسبي قد اكتملت ، وهي عنده أربعة اقسام .

أقسام العقلاء :

القسم الأول : فرقة عقلت عن الله تعالى عظم قدره ، وقدرته وما وعد وتوعد فأطاعت وخشعت (٣) .

القسم الثاني : وفرقة عقلت البيان ، ثم جحدت كبرا وعنادا لطلب الدنيا ، كما وصف عن إبليس أنه تكبر ، وعاند كبرا ، وهو مع ذلك يقول ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ

---

(١) ما ئية العقل ص ٢٢٠ .

(٢) الوصايا – القصد والرجوع إلى الله تعالى – ص ٢٦٨ .

(٣) مائية العقل ص ٢١٥ .

﴾ ص: ٨٢) ، ووصف اليهود فقال : ﴿ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ١٤٦) ، وقال ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ النمل: ١٤) ، وقال ﴿ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ الأنعام: ١١٤ ، وقال ﴿ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ آل عمران: ١٨٧) (١).

القسم الثالث : وفرقة طغت وأعجبت ، وقلدت فعميت عن الحق أن تتبينه ، ثم تقر به ثم تجحده كبرا ، وطلبت دنيا بعد عقلها للبيان ، فظنت أنها على حق ودين ، وهي على باطل وشر وضلال . (٢)

القسم الرابع : فرقة عقلت قدر الله عز وجل في تدبيره وتفرده بالصنع وعرفت قدر الإيمان في النجاة بالتمسك به ، وقدر العقاب في ضرره في مجانبة الإيمان ، فلم يجحدوا كبرا ولا أنفة ، ولا طلب دنيا لعقلها أن عاجل الدنيا يفنى وعذاب الآخرة لا يفنى ، فأقرت وآمنت ، ولم تعقل عظيم قدر الله في هيبته وجلاله ، وعظيم قدر ثوابه وعقابه في إتيان معاصيه ، والقيام بفرايضه ، فعصت وضيعت وغفلت ونسيت إلا أنها علمت عظيم قدر الإيمان في النجاة وعظيم ضرر الكفر قد عقلته عن الله تعالى فهي قائمة به دائمة عليه، ثم بعد عقله قدر الإيمان يزداد معرفة بقدر الغضب والوعيد والوعد فإن ازداد طائفة قام بطائفة من الفروض ، وترك بعض المعاصي ، وإلا ضيع بعض الفروض وركب بعض المعاصي من أجل الهوى ، ومعه عقل البيان والإقرار فعقل أنه مسيء ولم يرجع عن إساءته لغلبة الهوى ، ولو ازداد عقلا بعظيم قدر الغضب والرضى والثواب والعقاب لاستعمل ما عقل من البيان ، وأقر به بأنه حق فتاب وأناب. (٣)

---

(١) نفسه .

(٢) نفسه .

(٣) نفسه ص ٢١٦-٢١٧ .

ومتى يسمى الرجل عاقلا عن الله تعالى ؟ : يجيب المحاسبي بأنه يكون عاقلا عن الله تعالى إذا كان مؤمنا خائفا من الله عز وجل ، والدليل على ذلك أن يكون قائما بأمر الله تعالى الذي أوجب عليه القيام به مجانبا لما كره ونهاه عنه ، فإذا كان كذلك استحق أن يسمى عاقلا عن الله تعالى(١) .

أقسام العقل عند المحاسبي

قسم المحاسبي العقول من حيث الفهم في كتابه مائية العقل إلى عقول غرايز(٢) ، وعقول بصيرة ومعرفة وبيان (٣) ، وعقول نور(٤) .

لكنه عاد وقسمها تقسيما إدراكيا مرة أخرى في كتابه القصد والرجوع إلى الله تعالى إلى قسمين : (عقل غريزة ، وعقل تجارب ، فالغريزة أدركت التجارب ، وبالتجارب عقل أن العقل عاقل) (٥) .

وهذا النص يوضح أن المنهج الذي سلكه المحاسبي ويراه سبيلا للوصول لمعرفة حقيقية يقينية ، دون شك وارتياب ، هو المنهج التجريبي .

وبالذي سبق تقريره يتضح أن تصحيح أو تجريد آلة النظر والمعرفة عند المحاسبي يكون من خلال :

---

(١) نفسه ص ٢١٨ .

(٢) مائية العقل ص ٢٠١ .

(٣) نفسه ص ٢١٠ .

(٤) نفسه ص ٢٠٤ .

(٥) الوصايا – القصد والرجوع إلى الله تعالى – ص ٢٥٢ .

١- تحديد المعرفة المراد البحث عنها ، سواء كانت معرفة عامة كالبحث عن النجاة ، أو معرفة خاصة كالبحث عن كيفية كلام الله تعالى ، ومراده من كتابه الكريم .

٢- طلب المعرفة، والاجتهاد في البحث عنها بالعقل، يقول المحاسبي: (واعلم أن ما يصل العبد إليه من الفهم بقدر تقديم عقله، وموجود علمه بتقواه لله وطاعته) (١) .

٣- تقدير النتائج الأولية للنتاج البحثي ، إيجابية أو سلبية ، مع معرفة آفات العمل ، يقول المحاسبي : (فمن كانت له عناية بنفسه ، وخاف عليها التلف طلب لطائف الأسباب بدقائق الفطن ، وغائص الفهم حتى يصل إليها ، فإذا وصل إليها تمسك بها وعمل عليها ؛ لأن المعرفة لآفات العمل تكون قبل العمل ، ومعرفة الطريق قبل سلوكه ، وحاجة العبد إلى معرفة نفسه وهواها وعدوه ، ومعرفة الشر أشد إن كان كيِّسا وهو إلى ذلك أفقر ، إن كان فطنا معنيا بنفسه) (٢) . (وقال بعض الحكماء : إذا أردت أن يكون العقل غالبا للهوى ، فلا تعجل بقضاء الشهوة حتى تنظر في العاقبة ، فإنه كان يقال : إن مكث الندامة في القلب بارتكاب الشهوة أكثر مكثا من مكث الشهوة) (٣) . وهذه القاعدة يسميها المحاسبي : (المحاسبة في مستقبل الأعمال) ، وتعني عنده : (النظر بالتثبت قبل الزلل ؛ ليبصر ما يضره مما ينفعه ، فيترك ما يضره على علم ، ويعمل بما ينفعه على علم ، فمن اتقى العجلة وتثبت قبل فعله ، واستدل بالعلم أبصر ما يضره مما ينفعه قبل العمل بهما) (٤) .

---

(١) رسالة المسترشدين ص ٩٣ . وانظر آداب النفوس ص ١٠٠ .

(٢) آداب النفوس ص ٤٨ .

(٣) الرعاية لحقوق الله ص ٤٧ .

(٤) نفسه ص ٤٨ .

ويستدل الإمام المحاسبي على ذلك بأهل الأعمال في الدنيا ، وكيف يخرج العمل الدنيوي صحيحا بتقدير النتائج قبل الإقدام على العمل ، فإنه (إذا أراد أحدهم أن يبتدئ العمل روَّاه في نفسه ، وقدَّره ومثَّله في وهمه ، وصوره في العاقبة ، كيف يكون إذا فرغ منه ؟ فإذا تمثل في وهمه على ما يريد من الإحكام والتمام ابتدأ فيه ، حتى إذا فرغ منه اعترضه خشية أن يكون كان منه زلل أو نسيان فأخطأ فيه وفرط في إحكامه ، فإن رأى تفريطا أتم ما بقي منه وأصلح ما فسد منه) [(١)] .

٤- إسقاط الهوى والعاطفة ، وكل معوق يعوق العقل عن الوصول الحقيقي للمعارف الكسبية ، مثل النسيان ، والغفلة ، وتقليد الآباء ، والإعجاب بالرأي دون تحليل صحيح ، وعدم تمييز مكايد الشيطان ، والكبر والأنفة عن سماع الحق وقبوله .

٥- العمل على ضرورة ترك الإعجاب بالرأي : لأنه من أعظم معوقات العقل عن النظر في الحقيقة ، وهو بلاء وخذلان ونقص[(٢)] ، (فبالإعجاب بالرأي هلك عامة الكفار وأهل البدع من أهل الإسلام ، وأهل الخطأ في الفتيا ؛ لأنهم تأولوا فأعجبوا بتأويلهم ، وظنوا أنه الحق اليقين ، وقاسوا على غير القياس ، فأعجبوا بقياسهم ، وظنوا أنهم قد أصابوا الحق وقد تركوه ، ودانوا بغيره وخالفوه) [(٣)] ، (واستحسان الرأي الخطأ يأتي من قبل هوى النفس ، مع اعتراض من الظن أنه حق حتى يظنه بغير يقين) [(٤)] ، ويتمكن بعدم اتهام النفس ، وترك الشك ،

---

(١) نفسه ص ٥١-٥٢ .

(٢) الرعاية لحقوق الله ص ٣٤٦ .

(٣) نفسه ص ٣٤٨ .

(٤) نفسه ص ٣٤٨ .

واستحسان الرأي بغير علم واضح ، ولا دليل عليه من الله عز وجل [١].

٦- معرفة قواعد كل علم قبل البحث فيه ، فينبغي للباحث عن اليقين في العلوم حال إرادته تصحيح النظر بآلة المعرفة أن يعرف قواعد وشروط البحث في العلوم المختلفة ؛ حتى لا يغلط ، أو يعتقد أمرا خاطئا ، وخاصة إذا كان البحث في العلوم الدينية ، وعن اليقين الذي تحدث به النجاة . يقول المحاسبي : (إن أهل الدنيا إذا أرادوا أن يعملوا شيئا بدأوا بالطلب ، فطلبوا أداة ما يعمل به ذلك العمل ، وإلا فلا سبيل لهم إلى ذلك العمل البتة ، ولو اجتمع أهل الدنيا كلهم ، ومعهم أداة كل صناعة ، هل قدروا أن يثقبوا إبرة إلا بأداها التي هي أداها ؟ . وهكذا جميع الأشياء . هل رأيت بيطارا قط قدر على صناعته بأداة خياط ؟ أو قدر الخياط على صناعته بأداة البيطار ، وهكذا كل عمل : لا يقدر الحداد على عمله بأداة النجار ، ولا النجار بأداة الاسكاف ، وهكذا أعمال الآخرة لا يقدر عليها إلا بأداها ، وأصل أداة أعمال الآخرة العلم والمعرفة والاعتبار فإنها من دلالات الأداة) [٢].

٧- جمع العقل وتحديد النظر مع ترك الانشغال بغير المعرفة التي هي قيد التحصيل : ومعناه أن الفهم الصحيح بالعقل لابد فيه من التجرد التام ، بأن يستخدم العقل في التفكير مع مساعدة الجوارح الأخرى دون الانشغال بها وتشتيت الانتباه ، أو الانشغال بغير المعرفة المراد تحصيلها : يقول المحاسبي ردا على سؤال : (هل أستعين على فهم معاني ما أتلو أو يتلى علي ؟ قال : بإحضار عقلك فبذلك تفهم وتذكر ، ألم تسمعه عز وجل يقول ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ

---

(١) نفسه ، وقد تمت الإشارة في أثناء الحديث عن مراحل الشك الأولية عند الإمام المحاسبي أن ترك الشك وترك همة النفس من العوائق عن النظر الصحيح ، والوصول لليقين .

(٢) آداب النفوس ص ١٠٠ .

وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ ق: ٣٧) ، قال مجاهد : أو ألقى السمع : لا يحدث نفسه بغير ما يسمع ، وهو شهيد : قال شاهد القلب .

قلت : فكيف أحضر عقلي حتى يكون شاهدا لا يغيب عن فهم كلام ربي جل وتعالى ؟ قال : بأن تجمع فهمك حتى لا يكون فهمك متفرقا في شيء غير طلب الفهم لكلام مولاك .

قلت : وكيف أجمع همي حتى لا يتفرق في شيء سوى ذلك؟ قال : تمنع عقلك من النظر في شيء سوى طلب فهم كتاب ربك جل وتعالى.

قلت : وكيف أجمع عقلي ؟ قال : بأن لا تشغل جوارحك بما لا يشتغل به عقلك ، وأن تستعمل كل جارحة بما يعينك على الفهم كنظرك في مصحف ، واستماعك إلى تلاوتك أو تلاوة غيرك ، وتمنع عقلك من فكر وذكر يقوى طلب فهم كلام مولاك ؛ لأنك إذا لم تشغل جوارحك بشيء غير ذلك ، ومنع عقلك عن النظر والفكر في غير ذلك اجتمع همك وحضر ، وإذا حضر عقلك زكا ذهنك ، وإذا زكا ذهنك قويت على طلب الفهم ، واستبان فيه اليقين ، وصفا فيه الذكر ، وقوي فيه الفكر) (١) ، وهذا يقتضي التحصيل الحقيقي للمعرفة ، والوصول لليقين فيها (وبذلك مدح الله تعالى المستمعين لتلاوة كتابه بالفهم ، فقال عز وجل : ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ﴾ الأحقاف: ٢٩) ، أي قالوا : صه أفلا نسمع الله عز وجل ، مدحهم بأن سكتوا عن الكلام ؛ لئلا يشتغلوا عن فهم ما يتلو نبيه عليه السلام عليهم ، وهذا ولم يعلموا ما فيه وما هو ، فلما قضى وفهموا عن الله عز وجل ما تلا عليهم نبيه عليه السلام ﴿ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ تحدثوا وفهموا

(١) فهم القرآن ص ٣١٨-٣١٩ .

من الله عز وجل ما سمعوا فقالوا ﴿ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُۚ ﴾ الأحقاف: ٣٠ – ٣٢)وقالوا ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾ الجن: ١) ، لقد نطقوا بالحكم عن فهم بين ، وعن عقول ذكية في استماع آيات في مقام واحد فدعوا إلى إجابة الله عز وجل وأملوا المغفرة والنجاة من العذاب الأليم ، وأخبروا أنه من أعرض عما تلا نبيه صلى الله عليه وسلم من كلام ربه عز وجل لا يعرف الله ، وأن مصيره إليه .

هذا الأدب والفهم من استماع آيات في مقام واحد في أقل من ساعة فكيف بمن وعى القرآن كله من صغره) [١].

٨- طلب التوفيق من الله تعالى في المعرفة الدينية وغيرها ، فلولا توفيق الله تعالى لضل العقل في سعيه عن الحقيقة مهما أوتي من مقومات . وهذا التوفيق يناله العبد بعد إحضار عقله ، وجمعه مع عدم الانشغال ، يقول المحاسبي : (فإذا أحضرت عقلك بجمع همك بنية صادقة مع أمل ورجاء أن تنال ما قال ، وتسارع إلى محابِّه ، وتجتنب مساخطه ، وتريده وحده ، ولا تريد أن تفهم منه ما تتصنع به عند العباد ، فإذا نظر الله عز وجل إليك وأنت كذلك ، وعلم ذلك من ضميرك أقبل بلطفه وولي تقويم عقلك بفهم كلامه ، وما فيه من علم الغيوب ، ومكنون الوعيد فحينئذ تكون للقرآن مفهما ، فتستنطق منه علم ما عميت عليك فيه الحجة ، فيوضح الله لك به البرهان ، ويمدك بالفوائد ، ويجلي عنك ظلم الشبه ، ويدلك على محجة

---

(١) فهم القرآن ص ٣١٩ –٣٢٠ .

المهتدين ، ويذيقك الحلاوة التي أذاقها أهل التقوى) [١]. ثم يقول : (فإن طلبت الفهم بالصدق أقبل عليك بالمعونة ، تصديق ذلك في كتاب الله عز وجل : (﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ النحل: ١٢٨) ، لا يثقل فهم كلامه إلا على من تعطل قلبه ألا يسمع ، وربنا عز وجل يقول : ﴿ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ الأنفال: ٢٣) ، فأخبر أنه لو علم فيهم خيرا لأفهمهم ؛ لأنهم لم يكونوا صما ، وكانوا يسمعون قراءة النبي (صلى الله عليه وسلم) ، ولكن ضيعوا الفهم) [٢]. ويقول : (واصدق في الطلب ترث علم البصائر ، وتبد لك عيون المعارف ، وتَمَيَّز بنفسك علم ما يرد عليك بخالص التوفيق ، فإنما السبق لمن عمل ، والخشية لمن علم ، والتوكل لمن وثق ، والخوف لمن أيقن ، والمزيد لمن شكر) [٣] .

٩- التجربة وفهمها مع استقراء الحالات السابقة ، يقول المحاسبي : (فاطلب آثار من زاده العلم خشية ، والعمل بصيرة ، والعقل معرفة ، فإن حجبك عن منهاجهم فقد الأدب ، فارجع بالذم على نفسك ، ولن يخفى على أهل العلم صفة المخلصين) [٤] ، وهو ما سنفصل الكلام فيه بإذن الله تعالى في العنصر القادم ، أسأل الله تعالى التوفيق .

---

(١) فهم القرآن ص ٣٢٢ .

(٢) نفسه ص ٣٢٣ .

(٣) رسالة المسترشدين ص ٩٣ . وانظر : آداب النفوس ص ١٠٠ .

(٤) رسالة المسترشدين ص ١٠١ -١٠٢ .

المرحلة الثالثة : الاستقراء والتجربة

الاستقراء في اللغة : يعني التتبع ، من استقرأ الأمر إذا تتبعه ؛ لمعرفة أحواله . وعند المنطقيين : هو الحكم على الكلي لثبوت ذلك الحكم في الجزئي ، وهو نوعان : تام وناقص . فالتام هو الحكم على الجنس لوجود ذلك الحكم في جميع أنواعه كما قال أرسطو . والناقص : هو الحكم على الكلي بما حكم به على بعض جزئياته [(١)].

والإمام المحاسبي يرى ضرورة الاستقراء التام لجميع أفراد الموضوع المراد بحثه ، بعد تحديد المعرفة المرغوبة ؛ ليقف بذلك على جميع المعارف المتاحة ، وجميع القائلين بها .

فبعد أن أعلن أنه انتهى إليه البيان بتفرق الأمة ، وأن الشك بدأ يتسرب إليه لعدم تحديد الفرقة الناجية بالاسم ، ابتدأ بتفقد أصناف الناس جميعا دون استبعاد لأحد تفقدا استقصائيا – على حد تعبيره – ، ثم تفقد نفسه في هذه الأصناف ، فوجد أن النجاة هي التمسك بتقوى الله تعالى[(٢)] ، ثم عاد فتدبر جميع الأحوال في دهره ، وأطال فيها النظر والتفكير ، فرأى زمنا مستعصيا قد تبدلت فيه الشرائع ، ورأى أن الهوى قد غالب الناس فاتبعوه[(٣)] ؛ ولأجل ذلك نادى بضرورة إسقاط الهوى ، وردد ذلك في كلامه كثيرا ، مع الأخذ بالاعتبار أن الهوى عنده يعني كل المعوقات التي تعوق العقل عن الوصول للحقيقة ، كالنسيان ، والشهوة ، والغفلة ، والتقليد الغير مستقيم .

فهم التجربة

ثم يؤكد المحاسبي على أن سبيل الوصول للمعرفة اليقينية ، والتثبت منها ، يكون

---

(١) المعجم الفلسفي جـ ١ ص ٧٢ .

(٢) انظر : الوصايا – النصائح – ص ٦١–٦٢ .

(٣) انظر : الوصايا – النصائح – ص ٦٦ .

من خلال التجربة ، وليس مجرد التجربة هو الذي ينادي المحاسبي بتطبيقه للتمييز والفصل بين الخير والشر ، أو بين الحقيقة والباطل ، فإن الناس جميعا في نظره خاضعون للتجارب ، وإنما الذي يدلهم ويأخذ بهم إلى اليقين هو " فهم التجربة " ، وليس مجرد التجربة [١] ؛ لأن فهم التجربة عند المحاسبي يؤدي إلى التفتيش الدائم ، واستقراء الأحوال السابقة سواء في الذات أو في الخارج ، وتتطلب المراجعة المستمرة .

ولذلك فإن الناس في هذه القاعدة متفاوتون، وهم أقسام من حيث فهم التجربة :

القسم الأول : أهل العناية الموفقون لفهم التجربة ، وهؤلاء هم العارفون المميزون للخير والشر ، يقول المحاسبي : (واعلم أن من كان من أهل العناية بنفسه ، ورزق فهم التجربة، بلغ معرفة الخير والشر ، وعرف من أين وكيف؟ وعبر ووصف ، وفهم وفطن، ونطق بالحكمة ، وكان ما يسمع من الموعظة زيادة له في فهمه ومعرفته ووصفه ، ودقائق فطنته وسر حاجته) [٢] .

وهذا النص السابق يؤكد على أن المنهج التجريبي عند المحاسبي هو المنهج الأمثل للوصول لليقين في المعرفة ، والتثبت من الحقيقة ، فالمحاسبي يرسم طريق الوصول لليقين من خلال التجربة عن طريق :

أولا : الانتباه لطلب المعرفة ، والمثابرة في تحصيلها ، والانسان فيها يكون من أهل العناية بنفسه ، والانسان في هذه المرحلة هو الذي ينطلق بنفسه لطلب المعرفة بداية ، مع تحديد الأدوات والآلات الصحيحة التي سيستخدمها قبل خوض التجارب في المعارف

---

(١) الناس جميعا عند المحاسبي متساوون في عطية العقل والتجربة ، فالله تعالى أعطى الجميع عقولا متساوية ، لكن ميز بعض عباده بعقل النور الذي يفهم ويعقل عن الله تعالى ، وأعطى للبعض أيضا فهم التجارب التي خاضوها .

(٢) آداب النفوس ص ٨٣ .

للوقوف على اليقين منها ، وهذا أمر ضروري في تحصيل أي معرفة ، دينية كانت أو دنيوية ، عقلية كانت أو عملية ، فما البال بأمر الاخرة المتعلقة بالنجاة التي يسعى الإنسان إليها ، يقول المحاسبي : (إن أهل الدنيا إذا أرادوا أن يعملوا شيئا بدأوا بالطلب ، فطلبوا أداة ما يعمل به ذلك العمل ، وإلا فلا سبيل لهم إلى ذلك العمل البتة ، ولو اجتمع أهل الدنيا كلهم ومعهم أداة كل صناعة هل قدروا أن يثقبوا إبرة الا بأداتها التي هي أداتها ، وهكذا جميع الأشياء .

هل رأيت بيطارا قط قدر على صناعته بأداة خياط ، أو قدر الخياط على صناعته بأداة البيطار ؟ وهكذا كل عمل لا يقدر الحداد على عمله بأداة النجار ولا النجار بأداة الإسكاف ، وهكذا أعمال الآخرة لا يقدر عليها الا بأداتها وأصل أداة أعمال الآخرة العلم والمعرفة والاعتبار فإنها من دلالات الأداة) [١] .

فلابد في طلب اليقين المعرفي من اصطحاب أدواته التي هي العلم والمعرفة والاعتبار ، مع ضرورة إسقاط الهوى وتصحيح آلة المعرفة لتصحيح النظر والفكر .

ثانيا : الاهتمام بالتجربة وفهمها ، والوقوف على قواعدها الصحيحة .

ثالثا : عدم إهمال المعارف السابقة ، وطلبها من خلال الاستقراء التام ، وهو ما يعرف بـــ " تراكمية المعرفة " فالإنسان الباحث يزداد معرفة كل يوم بما يدخل إليه من معلومات جديدة ، لكنه قد لا يستفيد من هذه المعلومات لانقطاع فهمها عن السابق عنها من معلومات ، ولذا فإن المحاسبي يرى ضرورة الاستفادة من الخبرات والمعارف السابقة مهما كانت ضئيلة ؛ حتى يتسنى بناء المعارف الجديدة عليها ، ومن ثم يقوم بعملية التركيب والتحليل للمعارف القديمة من خلال فهم التجارب ، والربط بينها وبين المعلومات الجديدة .

---

(١) آداب النفوس ص ١٠٠ .

رابعا : التمييز بين الخير والشر يكون بمعرفة سببهما ، وكيفية حصولهما ، واختبار النفس ، والمراجعة المستمرة ، يقول المحاسبي : (ولا تعرف النفس حتى تمتحن وتختبر ، فاختبر نفسك حتى تعلم ما فيها) [(١)] ، فالتجربة هي الأساس في المعرفة ، ويتم ذلك عند المحاسبي من خلال الامتحان والاختبار للنفس للوقوف على مكانها في المعرفة ، يقول : (فإن أردت ذلك فعاملها بالموافقة لها ، والمفاتشة لهمتها في وقت الهمة ، وأحد إليها النظر) [(٢)].

ثم يضرب المحاسبي أمثلة على ذلك ، كالحلم وقت تعرض السفيه ، والتواضع وقت التعرض للجفاء، والأمانة عند الهوى، والطمع وقت هيجان الرغبة وغيرها [(٣)].

ثم يقول : (فإن كنت في هذه الحالات والأوقات محمودا فما أحسن خيرك واحمد الله واسأله الزيادة من فضله وامض فإنك على سبيل الاستقامة ، وطريق المحبة ومحجة الإيمان ، وإن كنت في هذه الحالات مذموما فأخلاقك وسيرتك أولى بك أن تصلحها ، فإن فيك فسادا عظيما ولست على سبيل الاستقامة ولا على طريق المحبة ولا محجة الايمان ، فاتق الله وراجع مفاتشة نفسك وإصلاح فسادها) [(٤)] . وهذا يتحقق بالتجربة ، والنظر للغير كذلك ، (فإذا نظرت إلى عثرة غيرك فاذكر عثرتك ، ومقتك لنفسك ، ولو أن مصلحة النفس ومنفعتها كانت فيما تهوى ، أو تشتهي لكان الناس كلهم صالحين ، ولكن جعل صلاحها فيما تكره، وفسادها فيما تحب وتشتهي) [(٥)].

---

(١) آداب النفوس ص ٩٥ .

(٢) نفسه .

(٣) انظر : آداب النفوس ص ٩٦ .

(٤) نفسه .

(٥) نفسه ص ٩٧

وملاك ذلك كله حاصل بالاعتبار الذي يشتمل على النظر، والتجربة وفهمها ، فبالاعتبار (يعرف من أين صار الحسن حسنا ، والقبيح قبيحا) (١) .

القسم الثاني : أهل العناية المبعدون عن فهم التجربة ، وهؤلاء تأتيهم المعرفة على قدرهم ، يقول المحاسبي : (ومن كان من أهل العناية ، ولم يرزق فهم التجربة ، عرف من معرفة الخير والشر على قدر عنايته ، ووصف عن صفتها وعبارتها ، ومن أين وكيف ؟ وضعف عن النطق بالحكمة ، وكانت الموعظة زيادة له في معرفة خيره وشره) (٢) .

ويلاحظ في تقسيم الإمام المحاسبي أنه مقارنة بين منهجين ، أحدهما رزق فهم التجربة دون غيره ، لكن جذب انتباهي عبارتان :

الأولى " بلغ معرفة الخير والشر " وهي فيمن رزق فهم التجربة ، وكان من أهل العناية .

والثانية : " كانت الموعظة زيادة له في معرفة خيره وشره " وهي فيمن لم يرزق فهم التجربة .

وأعتقد أن الإمام المحاسبي من خلال كلماته تلك يؤكد على حقيقة وأهمية المنهج التجريبي الصحيح في الوصول للحقيقة ؛ إذ أن صاحبه يتوصل لمعرفة الخير والشر ، والتمييز بينهما في العموم سواء فيما يتعلق بالذات أو بالخارج ، وإنه بتوفيق الله تعالى له يصير من الحكماء الذين ينطقون بالحكمة ، وبالتالي يجوز له أن يعظ غيره ؛ لمعرفته بالحقائق ، ووقوفه على ما ينفع النفوس من خير ، وما يضرها من شر . وأما القسم الآخر ، فإنه يبلغ في الغاية العظمى معرفة الخير والشر المتعلق بنفسه فقط .

---

(١) نفسه ص ١٢٥ .

(٢) نفسه ص ٨٣.

القسم الثالث : المبعدون عن فهم التجربة غير المعتنين بأنفسهم ، والفرد في هذا القسم (لم يرزق فهم التجربة ، وليست له عناية بنفسه ، فهو لا ينطق بلسانه عند الكلام ، ولا يعقل بقلبه عند السماع) [١] .

تطبيق قاعدة فهم التجربة

وتطبيقا لهذه القاعدة المنهجية التي أصل لها المحاسبي ، يتكلم عن كيفية الوصول للحكمة من خلال التجربة ، وكيف يسقط العبد الهوى قائلا : (واعلم أن طريق الحكمة هو الصمت، فإذا صمت ملكت قلبك، فيكون صمتك فكرا، ونظرك اعتبارا ، وكلامك ذكرا ، ولا تختر على الصمت شيئا إلا ما يلزمك من فرائض الله عز وجل .

وهذه خصال مجربة ، جربها أهل المحاسبة لأنفسهم ، فلما قاموا بها أحكموها بإذن الله عز وجل ، ووصلوا إلى المنازل الشريفة ، وإنما هي الأشياء بقوة العزم ، ومخالفة الهوى بإذن الله تعالى [٢] ، فمن قوي عزمه هانت عليه مخالفة الهوى ، ومن قوي عزمه يتبين له فضله في قلبه ، ويتبين له الذي يأتيه من عون الله تعالى له) [٣].

فالفهم للتجارب عند المحاسبي يقوم على أمرين :

أولهما : شخصي ذاتي به ينطلق العبد من تجارب نفسية وقتية ، ينظر في فعاله ، ويقيسها بنفسه على الوقت الذي يحيا فيه ، والأشخاص الذين يعاينهم ويعاصرهم ، وينظر إلى قياس أحواله على ما أمر الله تعالى ونهى .

---

(١) نفسه .

(٢) دائما ما يؤكد المحاسبي على هذين الأمرين في السير لليقين ، وهما مخالفة الهوى وما يتعلق به ، والثاني أن العبد في طريق سيره إلى اليقين مدفوع بالبدء من نفسه لكنه لا يصل إلا بتوفيق الله تعالى له .

(٣) شرح المعرفة وبذل النصيحة ص ٤٢ –٤٣ .

ثانيها : عام يقوم على النظر في التجارب السابقة وفهمها ، وعلى النظر في المعارف السابقة ، والعارفون قبله بحيث يبني معارفه على معرفتهم ، ويقيس حاله على أحوالهم في العلم والعمل معا ، دون تقصير في النظر أو الفهم .

المقاس عليهم

عند القياس ، وفهم التجارب مع الاستقراء ، وبعد إسقاط الهوى وتصحيح النظر ، يرى المحاسبي أنه من الضروري وجود طائفة سابقة مجمع على صحة سيرهم وعملهم وعلمهم ليصح القياس عليهم ، وليس مجرد القياس على السابقين هو المقصود ، بل لابد من أن يكون موجها لطائفة لم يختلف الجميع عليهم حتى يكون الاستقراء صحيحا ، والقياس منتجا لليقين ، وليس مجرد عملية عقلية فقط .

وهذه الطائفة عند المحاسبي هم الصحابة رضوان الله عليهم ، فهم أفضل العارفين الذين يصح قياس الأحوال ، والعلم ، والعمل عليهم ، والاستفادة من تجاربهم ، والأخذ من معارفهم ؛ فإنهم المعاينون للوحي ، المجالسون لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، المربون في حضرته الشريفة علما وخلقا وعملا ، (قد جمعت لهم الطاعة مرادهم فيها على قدر الإقبال عليها ، وأوضحت لهم سبل الرشاد فيها ، فلم يريدوا بما أدركت يد الظفر منهم بدلا ، ولم يبغوا عن شيء من ذلك حولا ، وأصبحوا في ذلك توفيقا من سيدهم ، ومعونة قائمة بالكفاية لهم ، وخفي لطف غير منقطع عنهم ، فدام لهم الحال وزكت الأعمال ، ووجدوا الظفر بالآمال ، ولم يجدوا عند ذلك هوى غالبا ، ولا عدوا مطالبا ، ولا أملا في النفوس كاذبا) [١] . ومرجع ذلك كله فيهم إلى أنه قد (أمات العلم بالله أهواءهم ، وغلب لهم أعداءهم ، وجمع لهم شملهم ، وأحكم لهم أمرهم ، وكان

---

(١) الحارث المحاسبي : المكاسب ص ٥٣ . تحقيق : عبدالقادر أحمد عطا . مؤسسة الكتب الثقافية . بيروت – لبنان ط ١ ١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧م .

التوفيق لهم صاحبا ، وخفي اللطف من الله دائما ، والتأييد لهم من سيدهم مرشدا) [١] ، (فتعلم أنك إذا أخذت بطريق أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقد أفلحت وأفلحت حجتك ، وتنال بغيتك ، ولا تخالفهم في شيء من الأشياء ، فإنهم كانوا على الحق المبين ، والنور الواضح ، فاتبع سبيلهم ، ولا تخالفهم فيخالف بك) [٢].

والدليل على ذلك الأفعال المروية عن الصديق أبي بكر ، وعمر الفاروق ، وعثمان ذي النورين ، وعلي بن أبي طالب، وأكثر أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) من المختارين لصحبته المنتخبين لمعونته ، وقد مدح الله تعالى أصحاب رسوله (صلى الله عليه وسلم) في مواضع كثيرة من كتابه ، وهم أفضل أهل الأرض بعد الأنبياء (عليهم السلام) ، وأعمالهم أفضل الأعمال وأشرفها ، ومقاماتهم أرفع المقامات وأعلاها [٣].

وتطبيق لهذه القاعدة المنهجية عند الحارث المحاسبي فإنه قد أعلن أن السلف الصالح هم الذين سيقيس عليهم أحواله وأحوال الأمة في عصره ، فبعد أن تفقد الأصناف ووجد غلبة الهوى ، وتبدل الشرائع ، أعلن أنه أصدر هذا الحكم عن قياس وتجربة ، واستقراء للمعارف السابقة ، وهو أن (الضمائر والأحوال في دهره بخلاف أحوال السلف وضمائرهم ، ولقد بلغه أن بعض الصحابة قال : لو أن رجلا من السلف الصالح أنشر من قبره ثم نظر إلى قرائكم ما كلمهم ، ولقال لسائر الناس : ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب) [٤] .

ومثال آخر يضربه المحاسبي للمقارنة بين عصره وعصر الصحابة ، فتكلم عن

---

(١) نفسه .

(٢) شرح المعرفة ص ٥٦ .

(٣) المكاسب . ص ٥٦–٥٧ بتصرف .

(٤) الوصايا – النصائح – ص ٦٦ بتصرف يسير .

حال الصحابة في جمع المال ، ورضاهم بالكفاف ، وأن ذهاب الدنيا أفضل من إقبالها ، وأن الناس في عصره كانوا عكس ذلك تماما من إقبال على الدنيا ، وعدم التفكر بالآخرة (١).

المرحلة الرابعة : إعلان نتائج البحث

عقب انتهاء البحث ، وخوض التجارب ، واستدامة المراجعة ، يعلن الإمام المحاسبي عن النتائج التي توصل إليها في بحثه عن اليقين من خلال المراحل السابقة .

ففي بداية بحثه أعلن عن سبيل النجاة المجمع عليه ، وهو تقوى الله تعالى ، وأن طريق تحصيله هو الاتباع ، وأن هذه هي المعرفة اليقينية التي سيسعى لتحقيقها ، ثم أعلن أنه قام بالتجارب والاستقراء لكل الأفكار بعد إسقاطه للهوى ، وتجريده للعقل كآلة كسبية للمعرفة ، فعظمت مصيبته لفقد الأولياء ، وانكمش في طلب عالم واحد ، حتى قيض له الرؤف سبحانه وتعالى قوما وجد فيهم دلائل التقوى(٢) ، ووجد إرشادهم

---

(١) انظر : الوصايا – النصائح – ص ٨٠–٨١. ويعتبر كتاب المكاسب للمحاسبي تطبيقا كاملا لمنهجه في التجربة والاستقراء والقياس . وتطبيق الأمور العملية مثل التوكل ، والورع في الكسب ، وكيفية الخروج من الشك ، وتحقيق اليقين في هذه المسائل جميعها . انظر : المكاسب ص ٤٤ –٤٥ .

(٢) لم يصرح الحارث المحاسبي باسم هذه الطائفة التي اتبعها ، لكن يرى الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور / عبدالحليم محمود أن هذه الطائفة هي طائفة الصوفية من أهل السنة والجماعة ، وأن الإمام المحاسبي قد وصل إليها بعد شكه في المعارف والفرق التي كانت موجودة في عصره ، فهو يرى أن الشك موصل للتصوف ، وأن التصوف هو المعرفة اليقينية التي تأتي بعد الشك والبحث ، ويضرب لذلك مثالا بالإمام المحاسبي قائلا : (لقد كان الحارث بن أسد المحاسبي متعطشا إلى المعرفة ، والبحث والاطلاع ، وإلى الوصول لرأي لا يعتوره الشك ، إلى رأي يقيني ثابت لا يتزلزل ، ولكنه بعد أن بحث زاد حيرة – بدل أن يزيد إيمانا – واضطربت نفسه ، وخشي أن يأتيه الموت فجأة قبل أن يعتصم بحبل الله المستقيم ، فكد وجد ثم يئس أن يصل إلى النتيجة ، ولكن الله وفقه في النهاية إلى الاتصال بقوم صالحين ، فسكن إليهم وأخلد ؛ لا لأن منطقهم أوجد عنده اليقين ، ولا لأن براهينهم بعثت في نفسه =

موافقا لأفاعيل أئمة الهدى من الصحابة ، مؤتمرين بالأوامر ، منتهين عما نهى الله عنه ، مخالفين لأهوائهم ، محاسبين لأنفسهم ، مالكين لجوارحهم ، مجانبين للشبهات ، تاركين للشهوات ، لكل امرئ منهم شأن يغنيه ، علماء بأمر الآخرة (١).

وعندئذ تبين للإمام المحاسبي فضلهم ، واتضح له نصحهم ، وأيقن أنهم العاملون بأمر الآخرة ، والمتأسون بالمرسلين ، والمصابيح لمن استضاء بهم (٢).

ثم يعلن نتيجته الذاتية التي توصل إليها ، وهي أن النجاة في اتباع هؤلاء القوم ، وأن الاعوجاج لمن خالفهم ، فيقول : (فأصبحت راغبا في مذهبهم مقتبسا من فوائدهم ، قابلا لآوابهم ، محبا لطاعتهم ، لا أعدل بهم سببا ، ولا أوثر عليهم أحدا ، ففتح الله لي علما اتضح لي برهانه ، وأنار لي فضله ، ورجوت النجاة لمن اقتربه و انتحله (٣) ، وأيقنت بالغوث لمن عمل به .

= الاطمئنان ، وإنما لأن سيماهم على وجوههم تبعث الثقة ، وتهدي إلى الرشاد) . انظر : الإمام الأكبر الدكتور عبدالحليم محمود : مقدمة المنقذ من الضلال ص ١٩٩– ٢٠٠ . وانظر أيضا : أستاذ السائرين ص ١٦ .

(١) الوصايا – النصائح – ص٦٢–٦٣ بتصرف .

(٢) الوصايا – النصائح – ص ٦٢–٦٣ بتصرف .

(٣) على الرغم من ان الإمام المحاسبي وصل إلى هذه النتيجة من مقدمات صحيحة ، بعد نظر وإسقاط للهوى = وبعد بحثه دهرا طويلا عن اليقين ، إلا إنه لم يجزم بالنجاة لمن اتبع هذا الطريق الذي وصل إليه ، وهو التصوف الصحيح المبني على الكتاب والسنة ، بل رجى له النجاة فقط دون الجزم بها ، وهذه قاعدة إسلامية أصلها سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) حين أخبر ان العبد قد يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار ، وحين رفض (صلى الله عليه وسلم) مسألة التألي على الله تعالى في الجزم بدخول أحد الجنة دون تقديم المشيئة والرجاء .

ورأيت الاعوجاج فيمن خالفه ، ورايت الرين متراكما على قلب من جهله وجحده ، ورأيت الحجة العظمى لمن فهمه ، ورأيت انتحاله والعمل بحدوده واجبا علي ، فاعتقدته في سريرتي ، وانطويت عليه بضميري ، وجعلته أساس ديني ، وبنيت عليه أعمالي ، وتقلبت فيه أحوالي) (١) .

ويؤكد المحاسبي – كما تقدم في غير مرة – أن ذلك كله بفضل الله تعالى عليه ، وأن هذا نعمة تستحق الشكر قائلا : (وسألت الله عز وجل أن يوزعني شكر ما أنعم علي ، وأن يقويني على القيام بحدود ما عرفني به ، مع معرفتي بتقصيري في ذلك ن وأني لا أدرك شكره أبدا) (٢).

فالنتيجة عند المحاسبي ذات شقين : الأول منها ذاتي ، والثاني خارجي .

ففي الأول يجب على الباحث أن يتأكد من وصوله لليقين أولا مع التثبت ودوام المراجعة ، وفي الثاني : يجب عليه التعريف بتجربته التي خاضها ، والمسائل التي وقفت أمامه ، والعقبات التي عاقته في مرحلة ما عن الوصول للحقيقة ؛ حتى يحذر منها من يأت بعده مطبقا لتجربته ، وهذه النتائج عند المحاسبي هي :

أولا : ضرورة العمل بالأمور الصالحة جميعها ، وقد ذكرها المحاسبي منثورة في كتابه الوصايا ، وفي كتابيه الرائعين : آداب النفوس ، والرعاية لحقوق الله ، ويعتبر كتابه المكاسب تطبيق لكامل منهجه في هذه المسألة .

ثم إذا لم يستطع الانسان القيام بهذه الأمور جميعها ، فإن عليه أن يتمسك بما تتحقق به النجاة يقينا، وهو الفرائض ، وهذا أقل ما يمكن التمسك به في باب النجاة ،

---

(١) الوصايا – النصائح – ص ٦٣–٦٤ .

(٢) نفسه ص ٦٤ .

يقول المحاسبي : (إخواني : إن فنون العلم والعبادة ، وجميع ما يتقرب به إلى الله تعالى الحسن ، غير أني أعهد إليكم في معرفة الفرائض المؤكدة على القلوب والجوارح ، ومعرفة الورع في المكاسب ، وفي الأحوال الظاهرة والباطنة ، والعمل بحسن النية ، والإخلاص لله بالأعمال ، فلا تقصروا في شيء من ذلك ، فإنه بلغنا أن الله عز وجل يقول : لا ينجوا مني عبد إلا بأداء ما افترضت عليه ، ألا فانكمشوا في الفرائض التي يسخط الله من يضيعها ، ويفوز العباد بأدائها) (١) .

ثانيا : التأسي بالصادقين وسلوك طريقهم ، وهم : (الفاهمون عن الله تعالى الموفقون بتوفيقه ، الذين استخلصهم من خلقه ، فانقطعوا عن العباد إلى الله تعالى بهمومهم ، ولم يكن فيهم فضل لغيره ، ولا تزين لسواه ، تدبروا العواقب وطلبوا معاني الدلائل ، عقولهم معلقة بالملكوت ، وذلك بغير ابتداء منهم اجتبوه ، ولا نالوه ، لكن بتفضل الله عز وجل عليهم ، وتعبده إياهم) (٢).

فهؤلاء يراهم المحاسبي أهلا للاتباع ، ويسأل الله تعالى أن يكون منهم ، ويحض غيره على ذلك قائلا : (فأقامنا الله وإياك مقامهم ، وأسلكنا وإياك سبيلهم ، حتى يلحقنا بمنازلهم ، ويرافق بيننا وبينهم في جواره ، فإنهم أعقل خلق الله ﷻ لما فهموا من كلامه ، وتدبروا معاني قوله ، وبذلك أمنهم ، ورضي عنهم وأثنى عليهم ورفع قدرهم) (٣) .

---

(١) نفسه ص ١١٥. وانظر : آداب النفوس ص ١٢٠ .

(٢) فهم القرآن ص ١٦٧-١٦٩ بتصرف .

(٣) فهم القرآن ص ٢٦٩ . وهذه الطائفة هي طائفة المحققين من الصوفية كما أشار إلى ذلك الإمام الأكبر الدكتور / عبدالحليم محمود . ويحقق ذلك ما تمت الإشارة إليه في المقدمة أن معظم هذه النصائح كانت موجهة للإمام الجنيد بن محمد البغدادي وهو سيد طائفة الصوفية (رضي الله عنهم أجمعين) .

ثالثا : التحذير من النظر في الاختلاف : وقد أطنب المحاسبي في عرض هذه النتيجة حيث إنها تمثل نتاج تجربته ، ونتاج استقرائه التام للأفكار ، والأشخاص ، ويريد نقل تجربته في هذه المسألة على نحو تام ، فيقول : (وبعد : فأحذركم النظر والبحث في اختلاف الأمة [١]. وقد انتهى إليكم الذي حل بهم من أجل الاختلاف ، والنظر في أهل الفرق وما ابتلوا به من الأهواء المضلة ، وارتكاب العظائم من مذاهب القدرية ، والمرجئة ، والرافضة ، والجهمية ، والحرورية [٢] ، فقد حاربوا وتعادوا وتباغضوا ، وشهد بعضهم على بعض بالكفر والضلال ، واستحلوا دماء المخالفين لأهوائهم ، وقد كانوا من قبل ذلك إخوانا على أمر الله متفقين ، فلما بلوا بالبحث والتعمق صاروا أصنافا ، واحتج كل قوم بمتشابه القرآن ، وبالآثار التي توافق أهواءهم فضلوا وأضلوا بذلك كثيرا) [٣] .

---

(١) قد يقال : إن المحاسبي قد وقع فيما حذر منه ، ودعا إلى اجتناب ما وقع فيه ! ، أقول وبالله التوفيق : إن المحاسبي حذر مما وقع فيه بعد خوضه تجربة الوقوع فيه وليس قبله ، فإنه بداية عاش مرحلة الشك في الفرق ، والنظر في أمرها واختلافها ، وجرب العقلاء الموجودين في زمانه ، واستقصى الأفكار قبل زمنه ، وفهم التجارب ، وأرشده الله تعالى لطريق الصادقين ، فاتبعهم ، وفهم حقيقة النجاة في العبادة ، واليقين في الفكر ، فنبه إلى عدم التقصير في العبادات عامة والفرائض على وجه الخصوص .ثم بعد ذلك فإنه يحذر بتجربة الخبير من الوقوع في مثل ما وقع فيه ؛ لأنه كما أخبر كان معه الأدوات اللازمة للبحث عن اليقين ، فخاض غمار النظر في الاختلاف لسبق وجود المعرفة عنده ، ولكنه يخاف على غيره من أن يخوض لجة النظر في الاختلاف فيصيبه منه ما لا يقدر على رده .

(٢) الحرورية والخوارج تسمية واحدة ، الأولى نسبة للمكان الذي خرجوا فيه على سيدنا لإمام علي وهو حروراء . والثانية نسبة لفعلهم وهو الخروج على الإمام . انظر في التعريف بالخوارج وفرقهم : أبو الحسين الملطي : التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ص ١٧٨ . تحقيق الشيخ محمد زاهد الكوثري . المكتبة الأزهرية للتراث طـ ٢ ١٩٧٧م .

(٣) الوصايا – النصائح – ص ١١٥-١١٦ . وهذا النص يوضح سبب تأكيد الإمام المحاسبي على ضرورة إسقاط الهوى عند البحث، وتجريد العقل المفكر في النصوص ، وتصحيح النظر في الاختلاف .

ثم يكرر المحاسبي الطلب بالمراقبة ، وترك البحث في الاختلاف ، والتعمق به مع بيان خطورة الفتن[١] ، والتأكيد على ضرورة التزود بالأدوات اللازمة للبحث ، وإلا سيقع الباحث في الفتن دون أن يدري ، فيرفض قبـــول الحق بعد ذلك ، فيقول : (فإذا تعمدتم النظر في الاختلاف دون التبحر في العلوم ، ومجالسة العلماء ومذاكرتهم لم يؤمن عليكم أن تبتلوا بشيء يســـبق إلى قلوبكم من الفتنة ، ويقال : ما من ضلالة إلا وعليها زينة ، ولعلكم تتركون الحق بعد ذلك ، وتأبى قلوبكم من قبول الحق من بعده) [٢]. (ألا فراقبوا الله إخواني ، واقبلوا نصح الشفيق عليكم ، فإن الشيطان لا يقصر في صدكم عن سبيل الحق ، ويحبب إليكم النظر في اختلاف الأمة لمعرفة الحق بزعمه ، واختيار الصواب كهيئة الناصح لكم ، ولعمري إنه بالأهواء والفتن دهاكم ، وعن ذكر المعاد ألهاكم ، فيا لشغل القلوب في غير قربه ، بل في التباعد عن ربكم ، ألا ولا تردوا المهالك باتباع الهوى عصمنا الله وإياكم من ذلك آمين) [٣] . وفي نهايات كتابه النصائح يقول : (ألا فاحذروا ما نعت لكم من أدواء النفوس ، ومكائد الشيطان ، فإن في القول والعمل المكتوم فينا لهوى وشهوات، وإرادة في النفوس كثيرة، فما ظنكم بأدواء النفوس إذا ظهرت في العلم والعبادة ؟ يا قوم : فلا تعدلوا بالسلامة شيئا ، واقبلوا النصيح الشفيق عليكم ، ولا ينبئك مثل خبير ، والله شهيد على ما تعملون ، وفقنا الله وإياكم لكل خير برحمته بمحمد وآله يارب العالمين) [٤]

---

(١) كرر الإمام المحاسبي هذا الطلب خمس مرات في صفحتين من كتابه الوصايا ص ١١٦ –١١٧ . مما يدل على أهمية المراقبة ودوام المراجعة في تثبيت المعرفة اليقينية .

(٢) الوصايا – النصائح – ص ١١٨ .

(٣) نفسه ص ١١٩ .

(٤) الوصايا – النصائح – ص ٢١٠ .

المرحلة الخامسة : دوام المراجعة

بعد انتهاء مرحلة الشك القائم على النظر المجرد ، وتصحيح آلة المعرفة لتحقيق صحيح المعرفة، واستقراء المعارف السابقة ، وفهم التجارب للتمييز بين النافع والضار ، يحرص المحاسبي على أن يرشد إلى ضرورة دوام المراجعة ، واستمرار التفتيش ، وعدم الانقطاع عنها قائلا : (واعلم أني إنما أكثر عليك وعلى نفسي من ذكر المراجعة لما قد استبان لي من الاضطرار والحاجة إليها ، فلو قد تعلقت بشيء من الخير فيها يكون ونسبتها ، وإلا فلا ، وما تركك لها إلا كالمستأنس لعدوه ، والمسلم نفسه إليه ، فهلكت وأنت لا تشعر) (١) .

وللمراجعة منزلة عظيمة في الوصول لليقين في المعرفة ، وتثبيته ، فبها يكون العبد عادلا في فكره ، وفي نفسه ، فإن أحزم الناس في العدل وأقربهم منه مأخـــذا : (المراجع لنفسه في كل خطرة تهواها نفسه او تكرهها ، فينظر في ذلك أن لو اطلع الناس على حالته هذه ، فاستحيا أو كرهها تحول من تلك الحالة إلى حالة لا يستحيا منها) (٢).

المراجعة سبيل النجاة

تمثل المراجعة المستمرة في نظر المحاسبي سبيلا للسلامة وتحقيق النجاة ؛ فإن العبد بعد تدرجه في طلب المعرفة ، والوقوف على حدودها ، واستخدامه للمنهج التجريبي في تحصيل المعارف مع توفيق الله تعالى ، لا يسلم من نسيان أو غفلة في الذات ، أو حصول حقد أو حسد من الخارج ، فيجب عليه للحفاظ على ما توصل إليه من دوام المراجعة .

وقد تحقق المحاسبي من ذلك بالتجربة قائلا : (واعلم أنك مسبوق إلى ضميرك

---

(١) آداب النفوس ص ٦٢ .

(٢) نفسه ص ٤٦.

بالحسد وسوء الظن والحقد ، فاجعل المراجعة شغلا لازما ، وكن وقافا كما قال الأول : المؤمن وقاف وليس كحاطب ليل ، فقف وطالع زوايا ضميرك بعين حديدة النظر نافذة البصر ، فإذا رأيت أمرا محمودا فاحمد الله وامض ، وإذا رأيت مكروها داركته بحسن المراجعة واستقصيت فيه [١] ، فإن الذي دخل بيتك ولم يستأذنك سوف يختبئ فيه ، وإن كان مظلما فأنت لا تشعر إلا أن يكون معك سراج من العلم مضيء واضح ، ويكون معك من العناية بأخذه والإنكار لما دخل فيه ما لا صبر له عليه ، ولا طاقة له به ، ولو قد جربت لعرفت أن الذي أقول لك كما أقول) [٢] .

ويقول : (فاعتن بتعاهد هذه المراجعة على قدر ما عرفت من حاجتك إليها ، فإنما لك من عمرك تيقظك ، وتيقظك مراجعة ما فيه منفعتك وقربتك ، والمصير إليه بالعقل ، وما سوى ذلك غفلة وسهو يؤديان إلى شهوة فيها غليان قلبك ، وفي ذلك موافقة نفسك الأمارة بالسوء، والهوى المضل عن سبيل الله العادل بأهله عن طريق محبته) [٣].

ويستمر المحاسبي في تأكيده على أن السير إلى الحقيقة ، وتحقيقها ، وإدراك صحيح المعرفة لا يكون إلا بتوفيق الله تعالى ، بعد طلب العبد للمعرفة ، وسلوكه دروب البحث عن اليقين ، فيقول : (وإذا رأيت لك عناية بالمراجعة ، فاعلم أنها نعمة وقربة من أعظم نعم الله تعالى ، فالتمس الزيادة منها بالشكر عليها) [٤] ، (فإنها موهبة عظيمة من

---

(١) أي استقرأته استقراءا تاما لتقف على حقيقة ما أنت فيه ، وما هو أولى ان تكون فيه .

(٢) آداب النفوس ص ٦١. والمحاسبي يؤكد مرة أخرى على أن التجربة هي خير وسيلة للوصول لليقين ، وأن فهمها هو المثبت لليقين في العقل والقلب ، وأن دوام المراجعة هو سبيل الحفاظ على النتائج التي توصل إليها الباحث عن اليقين كي لا تداخله غفلة أو نسيان .

(٣) آداب النفوس ص ٦٢-٦٣ .

(٤) نفسه ص ٦٣ .

مواهب الله تعالى ، أكرم بها أهل خاصته وعظم النعمة عليهم فيها ، فإن عظم النعمة على قدر الحاجة) [١].

تطبيق المنهج في دوام المراجعة

تظهر الصورة الجلية لمنهج المحاسبي في الوصول لليقين ، في تطبيقه لقاعدة دوام المراجعة ، وأذكر على سبيل المثال مسألتين غاية في الأهمية يمثلان شقي المنهج عند المحاسبي ، فواحدة منهما نظرية ، والأخرى في العمل .

الأولى : المتعلقة بالعمل وهي الصلاة حيث يرى المحاسبي ضرورة المراجعة فيها سواء قبلها أو في أثنائها وحتى بعدها فيقول : (وإن كنت متهاونا بما أقول لك فإن أكثر حاجتك إليها في صلاة الفريضة ، ثم بعدها وهلم جرا في جميع أمورك ، ولو كنت ممن يتفقد أمره لعلمت ماذا دخل عليك من الندامة والحسرة حيث فارقتك المراجعة في صلاة الفريضة ، فلم تدر ماذا قرأ إمامك ولم تدر أفي فرض كنت أم في نافلة في صلاة كنت أم في غيرها ، وأنت في رأي العين ممن يناجي ربه قد أصغيت بأذنيك إلى إمامك وتخشعت بوقوفك وفرغت قلبك لاستماع ما يقرأ أمامك من كلام ربك في صلاة فريضتك التي ليس شيء أوجب عليك منها ، فرجعت منها وقد ظهر منك ما وصفنا وأنت كمن لم يشهدها ؛ لقلة ضبطك بالمراجعة لنفسك فيها ، ولعل الذي حضرت منها بقلبك أو عقلته فلم تسه عنه لو قيل لك أتحب أن يكون ذلك منك كما كنت ساهيا ولك مائة الف دينار لقلت لا ، فاعتن الآن بتعاهد هذه المراجعة على قدر ما عرفت من حاجتك إليها) [٢]. ويؤكد الإمام المحاسبي في أكثر من مرة على صلاة الفريضة ؛ لأنها هي أقل

(١) نفسه ص ٦٢ .

(٢) نفسه ص ٦٣ .

ما يوصل العبد للنجاة [١].

الثانية : دوام المراجعة في نتائج النظر حتى اليقين ، ثم استمرار المراجعة للمتبعين : فبعد أن وصل المحاسبي لليقين في الفكر ، وأخبر ان الله تعالى قد وفقه لقوم مهتدين ، لم يقف عند هذا الحد بل إنه أخذ ينظر في تطبيق هؤلاء للأفكار التي اتبعوها ، مستخدما منهجه الذي اعتمده سابقا ، وهو قياس الأفراد على الكتاب والسنة وعمل الصحابة .

فنظر في أفكار بعض الصوفية ، وقاس أفكارهم وآراءهم على الكتاب والسنة وعمل الصحابة ، فتبين له مخالفة بعضهم في اجتهاداهم للمحكم من القرآن والسنة وعمل الصحابة ، و من أمثلة ذلك : نقد قولهم بترك الحركة في الكسب : يقول المحاسبي : (وقد ترك الحركة في الكسب أقوام [٢] ، على أمور مختلفة ، وأنا واصف بعضها إن شاء الله تعالى ، فمن ذلك ما زعم شقيق (البلخي ١٩٤هـ) فيما يروى عنه أنه كان يقول : إن الحركة في الكسب معصية ، وذلك انه قال : لما ضمن الله تعالى الرزق والكفاية ، كانت الحركة شكا فيما ضمن فحمل الأمر في ذلك على رأيه ، وقال فيه بزلل ، فخالف الكتاب والسنة ، وما عليه أكابر أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وجلة التابعين من بعدهم . [٣] ثم استدل الإمام المحاسبي على ما ذهب إليه بآيات من القرآن ونصوص من السنة توضح صدق نقده ، فمن القرآن الكريم قوله تعالى

---

(١) النصائح ص ١١٥. وانظر : آداب النفوس ص ١٢٠ .

(٢) تجدر الإشارة إلى أن الحارث المحاسبي قد تكلم في مسألة الكسب موضحا الواجب فيها من الكتاب والسنة وعمل الصحابة ، ثم بعد ذلك بدأ يقيس نفسه وغيره على ما رآه واجب الاتباع في هذه المسألة ، وقد تحرى المسألة بدقة ، ونقد بحيادية وتجرد تام مطبقا منهجه الذي رسمه لنفسه في الوصول لليقين والحكم على الآخرين . انظر كتاب : المكاسب ص ٥٠-٦٠. تحقيق : عبدالقادر أحمد عطا . مؤسسة الكتب الثقافية ط ١ ١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧م .

(٣) المكاسب ص ٦١ .

: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ ﴾ البقرة: ٢٦٧) ، ومن السنة قوله (صلى الله عليه وسلم) : (أفضل ما أكل الرجل من كسبه) [١] وفي هذا آيات كثيرة من كتاب الله تعالى ، وأخبار عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) متواترة ، وفي أقل مما ذكر يتبين خطأ هذه المقالة [٢].

المرحلة السادسة : العمل على اليقين وترك الشك :

ينصح المحاسبي الباحث عن اليقين في المعرفة بأمور لابد منها حال البحث قائلا : (فهكذا يا فتى : إذا أردت المعرفة وجمعها ، فكن حريصا عليها ، معنيا في طلبها ، متفقدا في أحوالها ، عاملا في معانيها ، راغبا فيها رغبة من قد عرف قدر منافعها ، حتى إذا وصلت إلى شيء منها ، دلك أولها على آخرها، واستجمعت لك برفقك بها ، وحسن صبرك عليها ، كما استجمعت الغنم لراعيها ، فسرت في محجة الأبرار إلى منازل الأخيار) [٣]. ثم يقول : (لا يغرنك ثنائي عليك، وحسن الألفاظ مني إليك ، فإني إنما أضع لك الأساس لترفع البناء ، ولا تفرح بالوصف دون العمل ، ولا تعمل العمل بغير وجل، ولا تستحسن الوصف لاستكثار العلم ، وعليك بالجهد والاجتهاد ، ودوام الكد والمبادرة والانكماش ، فإنك مطلوب ، فاعمل على اليقين ، واترك الشكوك ، وكن وصي نفسك ، ولا تؤخر اليوم لغد ، ولا تتوان في التوبة ، فإن الموت يأتي بغتة) [٤].

---

(١) أخرجه ابن ماجة في سننه بسند صحيح : باب الحث على الكسب جـ ٢ ص ٧٢٣ . تحقيق د/ محمد فؤاد عبدالباقي . دار الفكر . بيروت –لبنان .

(٢) المكاسب ص ٦٢-٦٣ بتصرف . وانظر : المكاسب ص ٨٤ .

(٣) الوصايا – القصد والرجوع إلى الله تعالى – ص ٢٨٢ .

(٤) نفسه ص ٢٨٣ .

وترك الشك بعد الوصول لليقين ضرورة علمية ؛ لأن الباحث إذا وصل إلى اليقين ثم عاد إلى الشك مرة أخرى صار الشك بذلك مقصودا لذاته ، ولم يتحقق الإنسان بمعرفة جديدة ؛ لأنه كلما حصل معرفة شك فيها ، فعاد إلى المبدأ بعد الانتهاء وهكذا حتى يصبح في دائرة مغلقة ، ويصير الشك بذلك وسيلة وغاية ، وبالتالي لا ينتج أي معرفة جديدة .

وهذه القاعدة وضعها المحاسبي بعد ذكره لأمور مهمة تعوض عن الشك في أثناء البحث عن اليقين ، وهما فهم التجربة ، ودوام المراجعة ، إذ بهما يواصل الباحث دوام التفتيش ، ويؤكد ما توصل إليه من خلال المراجعة ودوامها .

الخاتمة

وتشتمل على أهم نتائج البحث

يعتبر الحارث المحاسبي من أوائل الباحثين عن اليقين من خلال المنهج التجريبي في الفكر الإسلامي وغيره ، وقد سبق بطريقته هذه كل الأفكار التي قدمت في هذا الميدان ، فالمحاسبي هو أستاذ الباحثين عن اليقين ؛ فهو الذي وضع النواة الأولية لهذا المنهج ، الذي تأثر بها كل من أتى بعده في الفكر الإسلامي سواء كان تأثرا مباشرا أو غير مباشر.

فالمحاسبي رائد المنهج التجريبي ، ورائد الوصول لليقين من خلال الشك كمرحلة أولى ، فله السبق على غيره من الكثير من الفلاسفة الذين ينسب إليهم هذا الأمر كالإمام الغزالي ، وبيكون ، وديكارت ، وغيرهم ، فهؤلاء جميعا ساروا على نفس المنهج الذي اتبعه المحاسبي مع إدخال تحسينات أو اختلاف في الموضوعات ، سواء كان ذلك عن قصد مباشر بالتأثر أو غير مباشر .

وقد انتهج المحاسبي منهجا خاصا به في الوصول لليقين ، وتوصل لنتائج مهمة في عمليات البحث العلمي والديني ، حيث لم يفصل المحاسبي في منهجه بين النظر العقلي والتوفيق الإلهي مع ضرورة التأكيد على وجودهما مها أثناء البحث عن اليقين . وقد وضع الإمام المحاسبي القواعد العامة لمنهجه في كتابه الوصايا (النصائح) ، ثم فصل كثيرا من هذه القواعد في نفس الكتاب ، وفي كتابه (آداب النفوس) ، وكانت بقية الكتب شارحة ومطبقة لهذا المنهج ، فمثلا : كتابه (فهم القرآن) يعتبر تطبيقا عمليا لقاعدة تصحيح النظر بالعقل ، حيث طبق فيه المحاسبي قاعدة تجريد آلة المعرفة ، وقسم العقلاء عن الله تعالى ، وكيفية الوصول لليقين في فهم كتاب الله تعالى . وكتابه المكاسب يعتبر تطبيقا لكامل منهجه على مسائل الحلال والحرام والورع ، والنجاة في الآخرة التي كان يسعى إليها .

وقد تمثلت خطوات المنهج وأهم النتائج التي توصل إليها المحاسبي في الآتي :

١- الشك أول درجات المعرفة ، والعاقل هو من يعمل على التخلص منه بأدوات عقلية مناسبة، حتى يدركه لطف الله تعالى ليتخلص من الشكوك جملة وتفصيلا .

٢- تحديد الغاية من النظر والفكر سابق على عملية الفكر والنظر ، حتى يتسنى الوصول للمعرفة المرادة دون اختلاط .

٣- النظر الصحيح في بدايته لابد أن يكون كليا جامعا للأفكار ومعتنقيها ، وليس لأحدهم دون الآخر ، فإن النظر لمعتنقي الأفكار فقط يعوق عن النظر الصحيح للفكر والرأي ، والنظر للرأي دون معرفة تفاصيله عند أصحابه يؤدي لمعرفة ناقصة ، وقد فعل الإمام المحاسبي ذلك ، فإن نظره شمل جميع الأفراد .

٤- قياس الباحث لنفسه على الآراء الموجودة أمر ضروري حتى يعرف موقعه في الفكر ، ودرجته في البحث عن اليقين .

٥- أعظم عوائق الوصول لليقين هو " الهوى " ، ولابد من إسقاطه حال السير في طلب اليقين . ومن معوقات الوصول لليقين أيضا : الأنفة التي تمنع من الخضوع للحق ، وحب الغلبة ، والنسيان ، والغفلة ، ومكايد الشيطان ، والشهوات ، وتقليد الآباء ، والانتصار للنفس ، والعجب بالرأي . وقد نادى المحاسبي بضرورة إسقاطها جميعا حال البحث ، لكي يتجرد العبد بنفسه وعقله من كل معوق عن الحقيقة .

٦- عدم التسرع في إصدار الأحكام إلا بعد تبين كامل الحقائق .

٧- مراقبة الله تعالى بنية وإرادة صادقتين عند العلم والعمل وسيلة أكيدة للوصول لليقين إذا كانت صحيحة ،وصحتها تجعل منها ضابطا للبحث إذ تساعد على مواجهة النسيان والخداع والغلط ، والخطأ والعمد الذي يصيب الإنسان علما وعملا

٨- الاعتبار وسيلة للاستدلال على المعرفة ، وهو كذلك وسيلة لزيادتها ، والمعتبر

متفكر صادق ، وبين الاعتبار والفكر الصحيح علاقة طردية فكلما زاد التفكر زاد الاعتبار ، وكلما نقص التفكر نقص الاعتبار ، وبزيادهما معا يجد العبد طعم البر ، وبرد اليقين ، وروح الحكمة .

٩- بعد الشك في المعارف وإسقاط الهوى ، لابد من النظر مرة أخرى في المعرفة المراد البحث عنها والتي حددها الباحث ، وانكمش في طلبها ، مع ضرورة وجود آلة مجردة عن الهوى كي يتحقق بها صحيح النظر .

١٠- العقل هو آلة المعرفة التي تصدر عنه ، وهو حجة الله تعالى على العباد ، الذي جعله الله تعالى في الانسان معقل العلم ، ومستنبط الفهم ، وبه يتم الاستدلال. وقد اختار المحاسبي من تعريفات العقل أنه غريزة موهوبة ، وأن المعارف تصدر عنه بالطلب أولا ، ثم إعمال العقل ثانيا ، ثم التوفيق الإلهي المصاحب لكل مرحلة في النظر العقلي ، وبه يصل العبد للمعرفة الحقيقية ، وهو الذي سماه المحاسبي بعقل النور .

١١- لا يصل العبد إلى اليقين إلا بحسن النظر ولا يتم ذلك إلا بتجريد العقل وإسقاط الهوى ، وطول التذكر ، وتكرار الفكر ، وحسن الفهم ، ومن ثم يصبح مؤهلا للفيوضات الربانية والتوفيق الإلهي الموصل لليقين الذي لا تصيبه الشكوك ، وهو عين اليقين .

١٢- أثناء البحث عن اليقين ، واستخدام النظر العقلي يستصحب الباحث عددا من الأمور التي تعينه على الوصول لليقين ، منها : جمع العقل مع تحديد النظر ، وعدم تشتت الانتباه حتى تكون لديه القدرة على التركيز فيما يبحث خاصة في النصوص الشرعية ، ومنها أيضا : تقدير النتائج الأولية للبحث حتى يقف الباحث على آفات العمل والأمور النافعة فيه ، فيفعل النافع ويجتنب الضار .

١٣- ينبغي على الباحث عن الحقيقة في أي علم أو فن من الفنون أن يعرف قواعد كل

علم قبل البحث ، وأن يعرف أداته التي سيستخدمها حال بحثه ، حتى لا يقع في الخطأ خاصة إذا كان البحث في العلوم الشرعية التي يترتب عليها عمل يؤدي للنجاة في الآخرة بفضل الله تعالى . وقس على ذلك بقية العلوم .

١٤- يرى الإمام المحاسبي ضرورة الاستقراء التام أو ما سماه بالاستقصاء لجميع أفراد الموضوع المراد بحثه بعد تحديد المعرفة المرغوبة ؛ ليقف بذلك على جميع الأفكار والقائلين بها ، حتى يتسنى له صحيح النظر فيها جميعا لاختيار الحقيقة .

١٥- تعد التجربة خير وسيلة للوصول اليقين وتثبيته ، وليس مجرد التجربة هو المقصود بل فهمها والتعمق فيها ، وذلك لأن فهم التجربة يؤدي إلى دوام التفتيش والبحث ، والاستقراء ، واستمرار المراجعة ، ولذلك فالتجربة مع الاستقراء أمور ضرورية في البحث وتثبيته . وبالتجربة الصحيحة يستطيع الباحث التمييز بين الخير والشر ، والنافع والضار ، والناس في هذه القاعدة متفاوتون ، وليسوا على درجة واحدة . ويتوصل الباحث لليقين من خلال التجربة إذا حقق الانتباه لطلب المعرفة ، وفهم التجارب وفق قواعدها الصحيحة ، ولم يهمل المعارف السابقة ليستفيد منها في عملية التمييز ، وهو ما يعرف بـــ (تراكمية المعرفة) .

١٦- بعد انتهاء مرحلة الشك القائم على النظر المجرد ، وتصحيح آلة المعرفة لتحقيق صحيح المعرفة ، واستقراء المعارف السابقة ، وفهم التجارب للتمييز بين النافع والضار ، يحرص المحاسبي على أن يرشد إلى ضرورة دوام المراجعة ، واستمرار التفتيش ، وعدم الانقطاع عنها . فمن خلال المراجعة يتأكد الباحث من نتائجه ، وتتحقق له النجاة .

١٧- بعد الانتهاء من البحث يجب إعلان النتائج ، وهو عين ما فعله المحاسبي ، فأعلن أنه بعد مرحلة الشك والاستقراء والتجريب ، ودوام المراجعة ، وبتوفيق الله تعالى هداه الله تعالى إلى أناس عرف فيهم شيمة المتقين ، فاتبع سبيلهم ، وأدام مجالستهم

والأخذ عنهم ومنهم .

١٨- من الأمور المهمة التي توصل إليها الإمام المحاسبي في بحثه عن اليقين :

أولا : ضرورة العمل بالأمور الصالحة جميعها ، وإن لم يستطع العبد فعل ذلك كله التزم بفعل الفرائض ، وهي أقل ما يمكن التمسك به في باب النجاة .

ثانيا : التحذير من النظر في الاختلاف ، وهي من أهم النتائج التي طبقها المحاسبي على نفسه ، ويريد من الناس جميعا تطبيقها ؛ لأنها هي السبب في ما وصلت إليه الأمة .

ثالثا : العمل على اليقين وترك الشكوك : وهذه النتيجة لابد منها بعد الوصول لليقين ، فإن الباحث إذا وصل لليقين يجب عليه ألا يعاود الشك مرة أخرى ، وإلا يصير الشك عنده غاية ووسيلة ، وأضحى يصير في دائرة كلما وصل الى اليقين عاد إلى الشك ، فعليه ألا يشك إذا وصل لليقين .

وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ،

وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

قائمة بالمصادر وأهم المراجع

أ - القرآن الكريم

ب - السنة النبوية

ج - كتب الإمام المحاسبي :

١- آداب النفوس : الإمام المحاسبي . تحقيق : عبدالقادر أحمد عطا . مؤسسة الكتب الثقافية . بيروت –لبنان . ط ٢ ١٤١١هـ ، ١٩٩١م .

٢- الخلوة والتنقل في درجات العابدين : الإمام المحاسبي . تحقيق : إغناطيوس عبده خليفة . مجلة المشرق .عدد رقم ٤ أكتوبر ١٩٥٥ م . المطبعة الكاثوليكية .

٣- رسالة المسترشدين : الإمام المحاسبي . تحقيق : عبدالفتاح أبو غدة . دار السلام . حلب – سوريا . ط ٥ ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م .

٤- الرعاية لحقوق الله: الإمام المحاسبي : تحقيق : عبدالقادر احمد عطا . دار الكتب العلمية. بيروت – لبنان . بدون تاريخ .

٥- شرح المعرفة وبذل النصيحة : الإمام المحاسبي :. تحقيق : مجدي فتحي السيد . دار الصحابة للتراث بطنطا . ط ١ ١٤١٣هـ ، ١٩٩٣م .

٦- فهم القرآن: الإمام المحاسبي . تحقيق : حسين القوتلي . دار الفكر . بيروت – لبنان . ط ١ ١٣٩١هـ ، ١٩٧١ م .

٧- القصد والرجوع إلى الله تعالى . ضمن كتاب الوصايا : الإمام المحاسبي . تحقيق : عبدالقادر أحمد عطا . دار الكتب العلمية – بيروت . لبنان . الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ ، ١٩٨٦م .

٨- مائية العقل . الإمام المحاسبي : تحقيق : حسين القوتلي . دار الفكر . بيروت –

لبنان . ط ١ ١٣٩١هـــ ، ١٩٧١ م .

٩- المكاسب. الإمام المحاسبي . تحقيق : عبدالقادر أحمد عطا . مؤسسة الكتب الثقافية . بيروت – لبنان ط ١ ١٤٠٧هـــ ، ١٩٨٧م .

١٠- النصائح. ضمن مجموع كتاب الوصايا : الإمام المحاسبي . تحقيق : عبدالقادر أحمد عطا . دار الكتب العلمية – بيروت . لبنان . الطبعة الأولى ١٤٠٦هـــ ، ١٩٨٦م .

د - : قائمة بأهم المراجع

١١- إحياء علوم الدين . الإمام أبو حامد الغزالي. دار المعرفة . بيروت –لبنان . بدون تاريخ .

١٢- أستاذ السائرين : الإمام الأكبر د/ عبدالحليم محمود . دار المعارف . القاهرة . بدون تاريخ .

١٣- الأعلام : خير الدين الزركلي. دار العلم للملايين . بيروت – لبنان . ط٥ ، ١٩٨٠ م .

١٤- الأورجانون الجديد : فرنسيس بيكون . ترجمة د/ عادل مصطفى . رؤية للنشر والتوزيع . ٢٠١٣م .

١٥- تاريخ بغداد. الخطيب البغدادي . دار الكتب العلمية . بيروت –لبنان .

١٦- التعريفات : علي بن محمد الجرجاني . تحقيق : إبراهيم الإبياري . دار الكتاب العربي . بيروت –لبنان .١٤٠٥هـــ .

١٧- التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع . أبو الحسين الملطي . تحقيق الشيخ محمد زاهد الكوثري . المكتبة الأزهرية للتراث طـــ ٢ ١٩٧٧م .

١٨- تهذيب الكمال : أبو الحجاج المزي :. تحقيق : د/ بشار معروف . مؤسسة الرسالة . بيروت –لبنان . ط١ ١٤٠٠هـ ، ١٩٨٠ م .

١٩- التوقيف على مهام التعاريف : محمد عبدالرؤف المناوي تحقيق : محمد رضوان الداية . دار الفكر المعاصر ، دار الفكر – بيروت. دمشق ١٤١٠ هـ .

٢٠- حلية الأولياء : أبو نعيم الأصبهاني : دار الكتاب العربي . بيروت – لبنان . ط ٤ ١٤٠٥هـ .

٢١- سنن ابن ماجة . تحقيق د/ محمد فؤاد عبدالباقي . دار الفكر . بيروت –لبنان

٢٢- طبقات الشافعية الكبرى : تاج الدين السبكي . تحقيق : د/ محمود محمد الطناحي ، د/عبد الفتاح محمد الحلو ، هجر للطباعة والنشر والتوزيع .ط ٢ ، ١٤١٣هـ

٢٣- طبقات الفقهاء الشافعية جـ ١ ص ٤٣٩ : ابن الصلاح . تحقيق : محيى الدين علي نجيب . دار البشائر الإسلامية بيروت –لبنان . ١٩٩٢ م .

٢٤- قوت القلوب : أبو طالب المكي . تحقيق : د / محمود الرضواني . دار التراث – القاهرة . طـ ٢ . ١٤٣١هـ ، ٢٠١٠ م .

٢٥- لسان العرب : ابن منظور . دار صادر – بيروت .لبنان .

٢٦- معالم أصول الدين : الفخر الرازي . تحقيق : طه عبدالرؤف سعد . دار الكتاب العربي . بيروت – لبنان . بدون تاريخ .

٢٧- المعجم الفلسفي : جميل صليبا. دار الكتب اللبناني . بيروت –لبنان . مكتبة المدرسة . بيروت –لبنان . ١٩٨٢ م .

مقدمة كتاب آداب النفوس للمحاسبي : عبدالقادر عطا .مؤسسة الكتب -٢٨ الثقافية . بيروت –لبنان . ط ٢ ، ١٤١١هـ، ١٩٩١م.

فهـرس الموضـــــوعات